الأب
هنري بولاد
اليسوعيّ

اللّهُ
غير ما نتصَوَّرُه

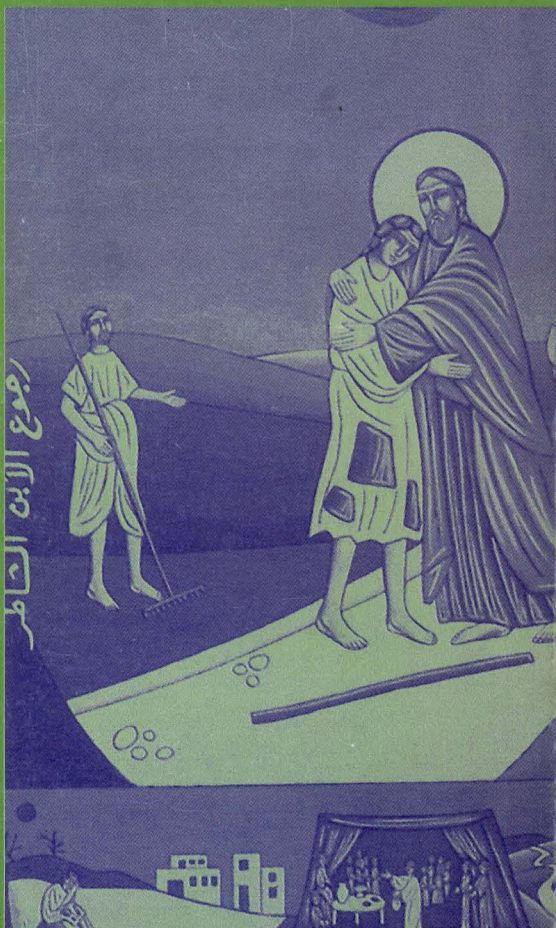

دار المشرق - بيروت

الأب
هنري بولاد
اليسوعيّ

اللّهُ
غير ما نتصَوَّرُه

أعدَّها للنشر

د. ممدوح صدقي زخاري

دار المشرق - بيروت

لا مانع من طبعه

بولس دحدح
النائب الرسوليّ للّاتين
بيروت، ٢/ ٣/ ٢٠٠٦

جميع الحقوق محفوظة، طبعة أولى ٢٠٠٦

دار المشرق ش.م.م.
ص.ب. ١٦٦٧٧٨
الأشرفية، بيروت ٢١٥٠ ١١٠٠
لبنان

http://www.darelmachreq.com

ISBN 2-7214-1137-3

التوزيع: **المكتبة الشرقيّة**
الجسر الواطي - سنّ الفيل
ص.ب: ٥٥٢٠٦ - بيروت، لبنان
تلفون: (٠١) ٤٨٥٧٩٣
فاكس: (٠١) ٤٨٥٧٩٦ - ٤٩٢١١٢
Website: www.librairieorientale.com.lb
E-mail: admin@librairieorientale.com.lb
Email: libor@cyberia.net.lb

الفصل الأوّل

وجود الله غير ما نتصوّره الله في قلب حياتنا

أين الله؟

حين نطرح السؤال عن وجود الله، نشعر تَلقائيًّا بأنّه حولنا، يشغل كلّ الفراغ المحيط بنا. وحتّى أوضِّح المعنى المقصود، أقول: هناك أشخاصٌ في هذا المكان، والله موجودٌ حولهم. هذه المنضدة يحيط بها الله من كلّ جانب، وهو موجود أيضًا حول جهاز التسجيل هذا، وحول جسمي، بمعنى أنّه يرفرف حول جميع المخلوقات والأجسام، يملأ الحيّز الذي يحيط بالموجودات. فما دام هذا الجسم موجودًا هنا، فإنّ الله لا يكون في داخله، بل هو خارجه وحوله. وحين أحرّك هذا الكرسيّ، فأنا بالتالي أحرّك الله يمينًا ويسارًا ليملأ الفراغ الذي خلقتُه حول الكرسيّ. وهكذا فحين أسير أخلق تيّارًا من الهواء، أو قل تيّارًا إلهيًّا، حيث يحلّ الله محلّي من الخلف ليفسح لي المكان من الأمام، حتّى أستطيع أن أنتقل وأتحرّك. وحين تتحرّك السيّارة بحسب هذا التصوّر، فإنّ الله يفسح لها فراغًا

حتّى تستطيع أن تسير.

لكنّ حقيقة الامر عكس ذلك تمامًا، فوجود الله يزداد بوجود الأشياء، وكلّما أضيفت مخلوقات في الكون، ازدادت الحضرة الإلهيّة وجودًا وحقيقة. فمن الخطأ أن أتصوّر أنّ الله موجود حيث لا توجد الأشياء، لكنّ الصحيح أنّه موجود بما أنّها موجودة، وحيث هي موجودة. فالحضرة الإلهيّة تتجلّى في وجود المخلوقات. وبكلمات أخرى، هو موجود بداخلي أكثر ممّا هو في الفراغ. فالله لا يكون في الفراغ بقدر وجوده في المُلء، وهو في الكائنات بما أنّه هو الكائن: «**أنظروا الآن، إنّني أنا هو ولا إله معي...**» (تث ٣٢/ ٣٩). وهذا الموضوع تناولته بقدر من التفصيل في كتابي **الإنسان وسرّ الوجود**[١].

(١) صدر عن دار المشرق، بيروت، الطبعة الثانية، ٢٠٠٤.

١

وجود الله في المخلوقات

الله هو الوجود، وبالتالي فإنّ كلّ شيء موجود هو تعبير عن وجوده تعالى. نقرأ في الفصل الأوّل من إنجيل يوحنّا «**به كان كلّ شيء وبدونه ما كان شيءٌ ممّا كان**» (يو ١/ ٣). فهو الذي أوجد الأشياء، وهو مصدر كيانها. لذا حتّى ألتقي الله، يجب أن أكتشف مخلوقاته، بل أستطيع أن أقول إنّ الفعلين هما في الواقع فعلٌ واحد. ما معنى هذا؟ حين أتحدّث، أنطقُ بألفاظٍ في صورة ذبذبات في الهواء، لكنّ الله، حين يتحدَّث هو، لا يقول ألفاظًا، ولا يُحرِّك جزيئات الهواء، بل كلّ كلمة منه تتجسّد في صورة مخلوق أو كائن، وكلامه يتجسّد في صورةِ حقيقةٍ محسوسة، وهذا ما يُطلق عليه لفظ الوجود، فليس هناك فجوة بين كلام الله وخلق الأشياء.

ولذلك فحين أُعلن عن رغبتي في قراءة كتابٍ يخبرني عن الله، يشير عليّ الجميع بقراءة الكتاب المقدّس. وأنا موافق على ذلك، لكن لديّ كتاب آخر سبق الكتاب المقدَّس الذي بين أيدينا، لأنّه دوِّن منذ البدء، وهو مُتاح ومفتوح لجميع البشر منذ بداية الكون حتّى الآن. إنّه كتاب الخليقة، حين نطق الله بكلماته، فصارت إحداها كوكبًا، والثانية شجرة، والثالثة صخرة، والرابعة حيوانًا، والخامسة إنسانًا. كلمة منه تجسَّدت فيَّ، وأخرى تجسَّدت فيك، فكلّنا كلمات لله الذي وضع مشروعه في كلمات خرجت من فمه فصارت مخلوقات.

حين أريد قراءة مشروع الله لمعرفة المزيد عنه، أستطيع بالطبع أن أفتح الكتاب المقدّس. ولكن، بطريقة أخرى، بإمكاني أن أطالع كتاب الكون والخليقة لأتصفَّح الصنيع الجميل هذا. وممّا يدعو للأسف أنّ أغلبيّة البشر ظلّت بعيدة عن هذه الحقيقة، فما زلنا نبحثُ عن اللَّه في اتّجاهات كثيرة جدًّا، غافلين أوّل رسالة منه إلينا قَبْلَ نزول أيّ وحي إلهيّ، وأقصد بها الطبيعة والكون والخليقة.

تحتفل الكنيسة بعيد القدّيس يوحنّا الصليبيّ

Jean de la Croix، الذي يُعَدّ من أكبر القدّيسين المتصوّفين. والمتصوِّف هو الشخص الذي يعيش في الحضرة الإلهيّة عيشًا يكاد أن يكون مستمرًّا، ويغوص على داخل كيان الله بطريقة غير عاديّة. وحين نتحدَّث عن متصوِّف، أوّل ما يتبادر إلى الذهن أنّه إنسان يسبح في السماوات العليا، بعيدًا كلّ البعد عن العالم والمخلوقات، تائهًا في عالم الغيب. في حين أنّ المتصوِّف الحقيقيّ هو الذي يمتلك مقدرة غير طبيعيّة على أن يتذوَّق ويتناول المخلوقات بطريقة محسوسة وملموسة أكثر ممّا يفعله الآخرون.

وقد اعتاد القدّيس يوحنّا الصليبيّ أن ينادي الله بالحبيب. فلم يرَ فيه الإله المتجبّر.. القادر..، بل اعتبره الصديق والحبيب والقريب، وكان يخاطب الله في صلواته بكلمات تبدو غريبة على أسماعنا، فيقول: «حبيبي الشمس الساطعة، حبيبي الغابة، حبيبي النهر، حبيبي النسيم، حبيبي الزهرة... إلخ. فقد اكتشف من خلال هذه المخلوقات وجه الله حبيبه بطريقة محسوسة، وكلّ حقيقة حوله كانت في نظره تعبيرًا عن هذا الحبيب.

لكن علينا أن ننتبه إلى أنّ هناك بعض الخطورة في هذا التفكير، إذ قد يؤدّي إلى تأليه المخلوق، أو ما أُطلِق عليه اسم مذهب الحلوليّة Panthéisme الذي حرَّمته الكنيسة، لأنّ بعضهم يرفض فكرة الربط بين الله والمخلوق، ويقول: «حاشا لله»، فهو أسمى من ذلك. أمّا أنا فإنّي أرى شيئًا من الصحّة في رأي كلّ من الفريقين، إذ إنّ في كلّ بدعة، وفي كلّ مذهب متطرِّف، وفي كلّ هرطقة جزءًا من الحقيقة، والخطأ يكمن حيث نجعل من هذا الجزء حقيقة مطلقة ونهائيّة. ومن جهة أخرى، الخوف كلّ الخوف أن نرفض هذه الأفكار، ونرفض معها الجزء الصحيح من الحقيقة الذي تضمّنته. فعلى سبيل المثال، نحن لا نقبل فكرة الحلوليّة، لكن فلندَعْ هذا المفهوم جانبًا، ليتسنّى لنا التفكير بإمعان في ما توصَّلت إليه هذه الفلسفة، وأقصد أنّ الله يكمن في كلّ ما حولنا، ويكشف عن ذاته فيه.

هذا الكلام ينطبق أيضًا على الوثنيّة (عبادة الأصنام)، والصنم كما نعلم هو شيء مخلوق يعبده الإنسان، ولا نختلف في الحكم على هذا التصرُّف بالخطأ، ولكن، إذا دخلنا في فكر

الإنسان الوثنيّ نكتشف أنّه لا يعبد هذا التمثال أو ذاك المخلوق، بل يعبد إلهًا من خلاله، وبذلك نحن نفسِّر تصرُّف الوثنيّ تفسيرًا متطرِّفًا وغير صحيح ونظلم هذه المذاهب. فالإنسان البدائيّ له المقدرة على النظر إلى المخلوقات على نحوٍ أعمق من نظرتنا، بعد أن فقدنا هذه العلاقة الحميمة بالخليقة. فامتلاكنا الأفكار العالية والثقافة والتمدين جعلنا نرتفع تدريجيًّا عن الأرض التي نعيش عليها، لنحلِّق في الأعالي، ونفتخر بثقافتنا التي ارتكزت على معلومات مجرَّدة.

وعلى النقيض، نرى أنّ الإنسان البدائيّ قد تكوَّنت معرفته من خلال حقائق عن طريق علاقته بالخليقة، ممّا أكسبه عمقًا بالسرّ الكامن فيها وهو الله. لذلك فإنّه أشدُّ قربًا منّا إلى الله. بالطبع لا أستطيع تعميم هذا الحكم، لكنّي أرى أنّ هذا القُرب جاء نتيجة لألفته للعالم والطبيعة والكون، وهذا ما يجعله يعبد المخلوق، إذ يشعر فيه بنوع من الإعلان عن الله.

من خلال هذه المخلوقات يعلن لنا الله عن ذاته إلى حدٍّ ما، وعلينا أن نعود إلى الوثنيّة كنقطة

انطلاق لإيماننا، فالمسيحيّ الذي لا يبدأ من الوثنيّة لن يفهم شيئًا عن مسيحيّته. لكنّ الوثنيّة التي أقصدها تعني الانتباه إلى العالم المحيط بنا، وتدفعنا إلى أن نفتح عيوننا وآذاننا وقلوبنا. وهذا ما يقودنا إلى المسيحيّة، دين التجسّد، حيث صار الله إنسانًا، والكلمة صار بشرًا وحلّ بيننا. المسيحيّة تشير إلى أنّ الذات الإلهيّة أرادت أن تحلّ في المادّة.. في اللحم والدم.. في الإنسان.. في الكون.. وفي هذه الدنيا. الله سبحانه وتعالى أسر نفسه في دنيانا. لذلك فإنّ كلّ محاولة للدخول إلى الدنيا والمخلوقات هي محاولة لإدراك هذا الكلمة الذي صار بشرًا في الخليقة وفي المادّة. فليس الله اللامتناهي في التجرّد، بل اللامتناهي في الواقع والقرب.

لقد تعوّدنا أن نبحث عن الله في السماوات البعيدة، ومن خلال الأفكار المجرَّدة، وفي الفلسفة واللاهوت، ونسينا أنّه أقرب من ذلك كثيرًا. نحن في حاجة إلى أن نتعلَّم لغة المخلوقات، وهي علم وجب علينا أن ندرسه. وهنا أودّ أن أرشدك يا عزيزي القارئ، إلى طريقة الوصول إلى لبّ الأشياء من خلال ما يسمَّى

«نظرة الانتباه». إنتبه إلى ما حولك، لا تنظر نظرة عامّة. فإذا نظرتُ إلى مجموعة من البشر أكون كمَن لم يرَ شيئًا، لكن لو دقّقت النظر إلى فرد معيَّن ونظرت صوبه، يصبح فلانًا. في هذه الحالة أبدأ أفهم ما يدور في داخله، أبدأ أتناوله، وإلّا تظلّ معرفتي العامّة السطحيّة غير مجدية لكم، وغير مجدية لمعرفتي الله. وما ينقصنا في كثير من الأحيان هو أن تكون لنا نظرة تركّز على الحقيقة وتتذوّقها وتدخل إلى عمقها بنوع من الإعجاب، وهذا ما يقودنا بالتدريج إلى السجود لله.

هناك أفرادٌ نمَّوا في أنفسهم هذه المقدرة على التنبّه للأشياء كالشعراء والفنّانين. فالشاعر هو الشخص الذي يمتلك المقدرة على التوقُّف أمام شيء أو مخلوق معيَّن، يجلس لساعات أمامه يتأمّله ويدقِّق النظر فيه حتّى يدخل في عمق كيانه، ثمّ يبدأ في التعبير عنه في هيئة كلمات منظومة شعرًا، بعكس الفيلسوف الذي يتناول الكائنات بأفكار عامّة مجرَّدة. فالفنّان التشكيليّ، على سبيل المثال، لا ينظر إلى الشجرة كلّها، بل يأخذ غصنًا من أغصانها ويرسم له لوحة رائعة. هذا الغصن لا يلفت نظر الإنسان العاديّ، إذ لا يرى

فيه ما يميّزه. لكنّ الفنان يلاحظ أنّ له شكلًا معيّنًا، يركّز عليه في لوحته، ليخلق منها عملًا رائعًا، وهذا يعود إلى مقدرته على التنبُّه، فهو يستطيع أن يُكسِب الكائنات معاني حتّى يتمكّن من الدخول إلى أعماقها.

وكامتداد للفنّ، هناك التصوّف الذي لا يكتفي بالنظر إلى الكائنات وتذوُّقها، لكنّه يجد في داخلها الحضرة الإلهيّة، والمتصوّف يمتلك القدرة على الوصول إلى عمق النظرة التأمّليّة التي قد تتوقّف عند عدّة مستويات: مستوى التذوّق الفنّيّ، ومستوى التذوّق الشعريّ، ومستوى التأمّل الروحيّ. والأخير هو نظرة تأمّليّة عميقة دخلت واستطاعت أن تصل إلى صميم الموجودات.

كيف نرى الله في المخلوقات؟

حين نتعامل مع المخلوقات، غالبًا ما يتمّ ذلك بطريقة سطحيّة، فنكون مثل إنسان يستمع إلى حديث بلغة لا يفهمها، فهو يستقبل الكلمات بأذنيه، من دون أن يُدرك معناها، ومضمونها غير واضح له. هكذا يكون تعاملنا مع المخلوقات،

فغالبًا ما نمرُّ أمامها ونرى الكثير من دون أن ندرك مدلول ما نراه.

هناك طريقة يستطيع الفرد من خلالها أن يتعلَّم كيف يترجم معاني المخلوقات ولغة الكون، ويتمّ ذلك بأن نغوص على عمق الأشياء والكائنات لنتناول كلًّا منها بكلّ كياننا حتّى نصل إلى الجوهر، وهناك نلتقي الله خالقها، فهو يختفي في قلب كلّ مخلوق، وكلّ شيء هو نافذة مفتوحة على عالم الله، لأنّ هذا هو الجوهر، وهو الحضرة الإلهيّة أو الوجود الإلهيّ الذي يثبِّت كلّ كائن في الوجود.

«لأنّ ما يُعرف عن الله بَيِّن لهم، فقد أبانه الله لهم. فمنذ خلق العالم لا يزال ما لا يظهر من صفاته، أي قدرته الإلهيّة وألوهته، ظاهرًا للبصائر في مخلوقاته» (روم ١/ ١٩ و٢٠). فكلّ مَن ليس له كتاب مقدّس، ولا يملك وسيلة للوصول إلى الله عن طريق الوحي، يكشف الله له عن ذاته من خلال المخلوقات. وقد جاء في المزمور: **«السموات تحدّث بمجد الله والجلد يخبر بما صنعت يداه»** (مز ١٩/ ١). بكلمات أخرى، يمكن اعتبار الخليقة والعالم والكون مثل كتاب

مفتوح يُعلن عن مجد الله وكيانه، وهو متاح لكلّ إنسان مهما كان دينه أو اعتقاده أو ثقافته، لذا نستطيع أن نسمّيه الدين الأوّل البدائيّ الذي يشترك فيه جميع البشر.

المخلوقات وسيلة تقودنا إلى الخالق

يمكن القول إنَّ جميع المخلوقات هي إشارة وعلامة ورمز لحقيقة موجودة عند الله، هذه الحقيقة يستحيل أن تكون موجودة في المخلوق، ما لم توجد في خالقه أوّلًا، تمامًا كما يُكشف العمل الفنّيّ عن شخصيّة مبدعه. فإن أردتَ أن تعرف ملامح شخصيّة الفنّان، عليك بدرس أعماله، ومنها تستشفّ معالمه النفسيّة وطباعه وتكوين شخصيّته. وهذا ينطبق على الفنّان كما ينطبق على الشاعر والأديب، فحين تقرأ أحد مؤلَّفات أديب ما، بإمكانك أن تكوِّن فكرة عنه، إذ هو يكشف عن ذاته من خلال هذه الأعمال. ولقد حكى لنا الله قصّة كبيرة هي قصّة الخليقة، والتأمّل في هذه المخلوقات هو إحدى وسائلنا التي تقودنا إلى معرفة الخالق، لذلك اتّخذت جميع الأديان المخلوقات رموزًا دينيّة لله.

كي أوضِّح فكرتي أعطي مثالًا الماءَ الذي نستطيع أن نتعامل معه على ثلاث مستويات: فعلى المستوى الكيميائيّ هو مكوَّن من عنصرَيْن، الهيدروجين والأوكسجين، ورمزه الكيميائيّ (H^2O)، وعلى مستوى ثانٍ هو مادّة موجودة بالطبيعة تروي عطشنا عندما نشربها، فالظمآن حين يرى الماء لا يفكِّر أبدًا في تركيبه الكيميائيّ؛ أمّا المستوى الثالث والأعمق فهو أن أشعر عندما أرتوي بالماء بمَن أوجده، وبمَن وهبني إيّاه؛ وهو الله.

وللمزيد من الإيضاح أطرح هذا المثال: تعوَّدت والدتي رحمها الله أن تُرسل إليَّ من حين إلى حين بعض المربَّى أو بعض الحلوى من صنع يديها، وكثيرًا ما كنتُ أشترك في تناول هذه المأكولات مع زملائي من الآباء اليسوعيّين، فكانوا يتذوَّقونها ويرون طعمها طيِّبًا، لكنّي كنت أفكِّر في هذه الأطعمة بعيدًا عن مذاقها المادّيّ، مع أنّها كانت لذيذة بالفعل، فكنتُ أكتشف فيها حبّ والدتي إيّاي. في هذه الحالة لم تصبح مجرَّد طعام، بل هي علامة حبّ، بمعنى أنّه من خلال المربّى والحلوى كنتُ أعيش مع أمّي وأشعر

بحبّها وحنانها، ومشاعر أخرى لم يدركها كلّ مَن اشترك معي في تناولها. فمع أنّ المذاق واحد، لكنَّ الإحساس مختلف.

هكذا في ما يتعلّق بالمخلوقات، فبإمكاننا أن نتوقّف على حدودها المادّيّة الطبيعيّة، أو حدودها المنفعيّة، لكن باستطاعتنا أيضًا أن نصل إلى معناها الروحيّ. إنَّه البعد الثالث، بحيث نشعر بالخالق من خلال المخلوق. وهذا هو مستوى الصلاة، حين لا ننظر إلى المخلوقات بصفتها حقائق مادّيّة غشيمة، ولا بصفتها حقائق ننتفع منها، ونستمتع بها، لكنّنا من خلال هذا المستوى، نلمس حبّ الله وحنانه. وللأسف الشديد، كثيرًا ما نتوقّف على المستوى الثاني الانتفاعيّ، ثمّ نتساءل كيف نرى ما وراء المخلوقات. ومن الصعب أن تشرح للآخرين كيف يجدون الله من خلال المخلوق. فهذه المهارة الروحيّة لا يمكن شرحها، لكن علينا بالتعامل مع الله علَّنا نصل إلى هذا الحسّ الروحيّ.

أ - الله موجود في الطعام والشراب

«ذوقوا وانظروا ما أطيب الربّ» (مز ٣٤/ ٩)

إستكمالًا للفكرة السابقة، أتذكّر موقفًا حدث منذ سنوات مع طالبات مدرسة القلب المقدَّس بمصر الجديدة. كنّا في يوم صيفيّ شديد الحرارة، وطلبن الإذن للشرب، فقلتُ لهنّ سأحضر حالًا الماء، وأحضرتُ كوب ماء مثلَّج، وقطرات الماء المتكثِّف على سطحه الخارجيّ تتلألأ كحبّات البلّور، وقلتُ لهنّ: أظنّ أنّ الجميع يشعرن بالعطش. أجبن: نعم، وسألتُ: هل نعرف كيف نشرب؟ قلن باستغراب: بالتأكيد. قلتُ: أظنّ أنّي محتاج إلى أن أعلّمكنّ طريقة الشرب الصحيحة. وطلبتُ أن نجلس في جوّ الصلاة، وقلتُ: عادةً نحن نشرب الماء حتّى نروي عطشنا، لكن ما نراه في هذا الكوب ليس مجرّد ماء، بل هو علامة حبّ من الله الذي يعطينا ذاته من خلال هذا الماء، فهو رمز إلى الحياة. ثمّ طلبتُ من كلّ طالبة أن تأخذ كوب الماء في يدها، وتغمض عينيها لتشعر بمدى برودة الماء، ثمّ تقرِّب الكوب من شفتيها حتّى يلمس اللسان، فتشعر بأنَّ الله يقترب منها، ثمّ تأخذ قليلًا من الماء وتتذوّقه بتمهّل لتشعر كم هو طيّب ولذيذ. هذه الطيبة ليست للماء وحسب، بل

هي طيبة الله: «**ذوقوا وانظروا ما أطيب الربّ**» (مز ٣٤/ ٩). وهي لا تظهر إلّا من خلال وسائط محسوسة وملموسة، فتتجلّى لنا في مذاق المأكولات والمشروبات التي نحبّها. لذا علينا أن نتعلّم كيف نتناول طعامنا بأسلوب روحيّ تصوّفيّ، وعندئذ ستتحوَّل وجبتنا إلى صلاة. فبعضنا يصلّي قبل الأكل أو بعده، لكنّي شخصيًّا قد لا أصلّي قبل الأكل أو بعده، إذ أصبح الأكل ذاته في حياتي فعل صلاة وجوديّة.

قصدتُ الحديث عن الطعام والشراب لأنّهما من النشاطات الأساسيّة التي يمارسها كلُّ إنسان يوميًّا، ويمثّلان المتعة الأساسيّة الأولى عنده. فالطفل الصغير ماذا يتلقّى من أمّه في أثناء الرضاعة؟ بالتأكيد الغذاء، لكنّ الأمر لا يتوقَّف على ذلك، بل هو أيضًا حبّ وحنان، ومن خلال هذه الحركة يندمج البُعد النفسيّ في البُعد المادّيّ. هكذا يجب أن تكون خبرتنا ونظرتنا نحن الكبار إلى الطعام. حين نأكل أو نشرب، حبَّذا لو نفكّر في هذا الفعل أن يكون تلقّي حبّ من مصدر الحبّ والحياة، فيصير تناول الطعام عمليّة روحيّة خالصة.

هذه دجاجة مشويَّة طعمها لذيذ، هذا الطعم هو الله. وهذا محشي ورق عنب، وهذا الجبن الروميّ الذي أحبّه... إلخ. ربّما تلومني، يا عزيزي القارئ على دخولي في التفاصيل، فلماذا لم أذكر الطعام على عمومه. كلّا، أريد أن نخرج من العموميّات، لأنّ الله في قلب حياتنا التي يجب علينا أن نجزِّئها إلى أجزاء صغيرة، وكلّ جزء له طعمه ومذاقه الخاصّ. فما دمنا نتوقَّف على العموميّات، سنظلّ في مستوى الفلسفة أو الأفكار المجرّدة. أمّا الأمور الروحيّة فهي الإحساس بكلّ مميّزات الحقيقة وصفاتها الخاصّة. فلا أتحدَّث عن الجبن عمومًا، بل عن الجبن الروميّ، ولا أقول مربّى، بل مربّى الخوخ مثلًا. هل ما زلنا نخشى الحديث عن الأكل وأصنافه خوفًا من اتّهامنا بالمادّيّة؟ كلّا، فالإنسان الروحانيّ لم يعد يفصل بين المادّيّ والروحيّ، فقد حدث اندماج بين العالَمَيْن في حياته، وألغى الحاجز المتوسّط بينهما، فلم يعد يميّز بين جوانب ماديّة وأخرى روحيّة. وأخيرًا أتمنّى أن تدخل هذه المفاهيم في حياتنا بطريقة جيّدة، حتّى تضيف إلى طعامنا وشرابنا هذا

البعد: «**ذوقوا وانظروا ما أطيب الربّ**».

وكلمة تذوُّق هي في منتهى الأهمّيّة، بخاصّة في الرياضات الروحيّة، حيث يجب أن لا نركِّز، على الكَم، بل على الكيف، وعلى قدرتنا على التذوّق والاستطياب. فالتجربة التي قمتُ بها مع طالبات مدرسة القلب المقدّس علّمتهنّ كثيرًا، فنحن عادةً حين نشرب، نجد الكوب فارغًا بعد ثوان قليلةً، تمامًا كما نفرغ ما بالإناء في الحوض. فهذا ليس شربًا. لقد حاولتُ أن أجعلهنّ يتذوّقن الماء، ويكفي الإنسان أن يتوقّف على تجربة معيَّنة مرّة واحدة في حياته، حتّى تتحوّل إلى مرجع روحيّ، بشرط أن يتعمّق فيها ويتذوّقها.

ب - الله في جمال الطبيعة

فالطبيعة بجمالها وسحرها تبعث لنا برسالة عن الله. تسألني كيف؟ أقول: لو كان من السهل أن أترجم لك هذه الرسالة في كلمات، لما احتاج الله إلى أن يرسلها من خلال الطبيعة. فالكلمات لها مضمون عقليّ، أمّا الطبيعة فتبعث برسالتها في مجال آخر، بواسطة الإحساس والشعور.

اللَّه في جمال الطبيعة

حين أجلس في الصباح الباكر أمام حديقة، وأرى شروق الشمس، أكون أمام رسالة ينطق بها القلب لا العقل، فالغوص في الطبيعة هو ما يدفعني إلى الشعور بحبّ الله، حيث نشعر بحبّ يحتوينا، وحنان يستوعبنا، وسلام يغمرنا. حبّ وحنان وسلام هي جميعها مفردات لا تحتوي على مضمون منطقيّ عقلانيّ، والصلاة الحقيقيّة تتخطّى مستوى العقل والفكر لتصل إلى مستوى أعمق. فهناك رسالة في الطبيعة، ومنذ بدء التكوين، شعر الإنسان بالصلة بين الله والمخلوقات. حين أسير على كورنيش البحر في مدينة الإسكندريّة لأتمتّع برؤية البحر، قد أصفه بأنّه واسع أو عميق أو هائج، لكن حين أتأمّل فيه أشعر بحنان الله وسلامه.

في هذا الصدد أودّ أن أوضِّح الفرق بين البُعد الشعريّ والبُعد الروحيّ في تأمّل الطبيعة، فالشاعر، كما تشير الكلمة، يشعر بالطبيعة والمخلوقات وحسب، فيتوقّف على شعور معيَّن، قد يكون عاطفيًّا، وأحيانًا أعمق من ذلك، قد يكون وجدانيًّا. لكن، هل يرى من خلف الطبيعة حضور شخص أو كائن؟ هل يشعر

بوجود فعل حبّ؟ إنَّ فعل هذا يكون قد تخطّى مرحلة الشعر الذي يعني تجاوبًا مع الطبيعة على مستوى عاطفيّ حسّيّ. أمّا المتصوِّف فيجد من ورائها كائنًا وشخصًا، يجد وجهًا، يجد حبًّا وابتسامة. والمزامير تحاول كثيرًا رفع الطبيعة الغشيمة إلى مستوى الروح، فيستعين كاتب السفر بمظاهر الطبيعة حتّى يُخبر بمجد الله وعمله وعظمته، ومع أنّ بعضها قد يفتقد هذه اللمسة الصوفيّة، إلّا أنّها تظهر بوضوح في بعضها الآخر، **كالمزمور ١٣٩** على سبيل المثال.

توقَّفتُ يومًا في حديقة الدير على مشهد قطّة ومعها صغارها الستّة، أعجبني منظر القطط الصغار، لكنّ الأمر لم يتوقّف على جمال المنظر، فهناك بُعد روحيّ في هذا المشهد. فمن خلال تأمّلي وجدتُ حنان الله يتجسَّد في تصرّفات هذه القطّة الأمّ، كيف تخاف عليها، وكيف تسلِّم جسدها للصغار لترضع منها، وكأنّها تقول لها: إفعلي ما تريدي، فكلِّي لكِ. من أين لهذا الحيوان الأعجم بكلّ هذا الحنان إن لم يكن من المصدر، من حنان الله الذي تجلّى وتجسَّد لنا في حنان القطّة الأمّ؟ فإذا كانت وهي حيوان لا

يعقل تحبّ صغارها هكذا، فكيف يكون يا ترى حبّ الله إيّانا؟!

ما ينقصنا هو النظرة التأمُّليّة في الأشياء والمواقف، فنظرتنا كثيرًا ما تتّسم بالسطحيّة والسرعة، يشجِّع على ذلك أسلوب الإعلام في التلفزيون، وإيقاع الحياة العصريّة التي يمكن أن نصفها بأنّها حياة هرولة وجري، فالأفلام الحاليّة والإعلانات عبارة عن صور متصادمة ومتلاحقة. فمن النادر أن تستقرّ اللقطة أكثر من ثانية، وذلك بغرض شدّ انتباه المشاهد باستمرار. هذه صورة بالكاد نستطيع أن نتبيّنها حتّى تحلّ محلّها ثانية وثالثة ورابعة.. وهكذا، وكان من نتيجة ذلك أنّنا فقدنا المقدرة على التأمّل، وهذا سبب من أسباب عدم تركيز الطلبة في المدارس.

لكن على مرّ حياتنا، وبتعمُّقنا في مواقف معيَّنة، تتحوَّل حياتنا بالتدريج إلى قصّة حبّ، وحوار حبّ طرفه الآخر الخالق، ومن خلال ذلك تفقد المخلوقات صبغتها الدنيويّة المادّيّة العاديّة، وتتحوَّل بالتدريج إلى قصّة روحيّة. وهو ما تُطلَق عليه عبارة النظرة الشفّافة، حين ألغي الحاجز بيني وبين المخلوق لأرى الخالق. في

الحقيقة، يمكن اعتبار هذه الشفافيّة مدخلًا للإيمان، فالإيمان هو القدرة على رؤية ما لا يُرى: «**فالإيمان قوام الأمور التي تُرجى وبرهان الحقائق التي لا تُرى**» (عب ١١/ ١). وكلمة إيقان تحمل ملامح عقليّة فقط، لكنّي أريد أن أضيف إليها الإحساس والشعور، وأيضًا اختبار ما لا يُرى واختراق الظواهر، وبالتدريج ومن خلال تعدّد المخلوقات واختلافها، أصل إلى حقيقة واحدة هي الله الحبيب.

٢

وجود الله في القريب

محبّة القريب

تعرَّضت فيما سبق لقضيّة وجود الله في المخلوقات، والآن أريد أن أتطرَّق لحقيقة وجوده بصفة خاصّة في البشر. فهناك فكرة مشوَّهة عن المحبّة المسيحيّة جعلت بعضهم يتصوَّر أنّها، حتّى تكون خالصة ونقيّة، يجب أن تتعامل مع القريب من أجل الله، بمعنى أنّني أحبّك، لا من أجلك، بل من أجل الله، متوهّمًا أنّني إذا أحببتك لأجلك سأسلب الله جزءًا من محبّتي إيّاه، فتكون أنت وسيلتي لحبّ الله. أي إنّك لست الهدف، فكلّ شاغلي هو الله، وأنا أستغلّك كسلّم للوصول إليه.

وهناك مفهوم قديم للمحبّة المسيحيّة تُعبِّر عنه

كلمات هذه الصلاة: «**وأحبّ قريبي كنفسي حبًّا لك**». هذا يعني أنّني لا أحبّ قريبي، بل أحبّ الله، أمّا قريبي فهو وسيلتي لتحقيق هذا الهدف. إنّ هذا الحبّ مزيَّف، إذ لا يوجد إنسان يقبل أن يكون محبوبًا من أجل كيان آخر، حتّى لو كان الله. ففي ما يتعلّق بيَ شخصيًّا، إذا أردتَ أن تحبّني افعل ذلك لشخصي، وإلّا لا داعي، فلا تستعملني كوسيلة حتّى تحبّ الله، لأنّي حين أحبّ شخصًا ما أفعل ذلك من أجل نظرته أو ابتسامته أو طباعه أو سيرته. حين أدخل في أعماقه وأحبّه لشخصه، في هذه اللحظة، وعند هذه النقطة النهائيّة لهذا الشخص ألتقي الله، لأنّ الله ليس حقيقة مبهمة، بل هو ما يميِّز كلّ شخص عن باقي الكائنات الأخرى.

فالحبّ، حتّى يصل إلى الله، يجب ألّا يبقى على السطح، لأنّه سبحانه وتعالى مثل الهواء الذي يحيط بجميع المخلوقات، وحتّى أصل إلى حبّ هذه المخلوقات عليّ أن أحبّه. دعك من حبّ الله وانتبه إلى قريبك، ادخل في ماضيه وحاضره، في أفكاره ومشاريعه، في كيانه وعمقه، حتّى يشعر بأنّه محبوب لشخصه. في

هذه اللحظة فقط تستطيع أن تصل إلى الله في أعماق قريبك، وبغير ذلك لن تستطيع.

ثمَّة نوع من التديُّن يخلق عند الناس نوعًا من الكسل، انطلاقًا من فكرة أنّه ما دام واجبًا عليّ أن أحبّ الله، فلا داعي إلى أن أحبّ الناس، فأستغني عن المجهود المطلوب منّي لكي أحبّ القريب كما هو، في حياته اليوميّة العاديّة. إنّه نوع من الهروب، فالدين قد يكون أفيونًا للشعوب حين يشجّع على التحليق فوق سطح المخلوقات في كثير من الأحيان.

وقد حدث في الماضي أنّ بعض الراهبات اللواتي يخدمن المرضى في المستشفيات، كنّ يتّخذن من المريض وسيلة لممارسة فعل المحبّة، فكان المريض مثل المختبر الذي أمارس فيه محبّتي لله. أصبحتُ لا أهتمّ به بقدر اهتمامي بالله، فأنا أبغي إثبات محبّتي له سبحانه وتعالى باستخدام المريض وسيلةً أمارس من خلالها فضيلة المحبّة حتّى أستحقّ فضلًا عند الله، لكنّ المريض لم يكن يهمّني لشخصه. قد تكون هذه الصورة مبالغًا فيها نوعًا ما، لكنّ هذه الفلسفة كانت موجودة في روحانيّة معيّنة ترتكز على أنّ

المحبّة لا تتناول القريب لشخصه، بل لاعتقادنا أنّنا نحبّ الله من خلاله، وبهذا نكون قد فقدنا الله والقريب معًا.

نعود إلى النصّ الموجود في إنجيل متّى الفصل الخامس والعشرين، ونستمع إلى يسوع يقول لكلٍّ منّا: «**لأنّي جعتُ فأطعمتموني...**»، فيردّ المختارون: «**يا ربّ، متى رأيناك جائعًا فأطعمناك...**»، إذ إنّهم قد أحبُّوا القريب العطشان والجوعان والعريان لذاته، لا من أجل يسوع أو الله، ولأنّهم فعلوا كذلك، يقول لهم: «**كلّ ما فعلتموه بأحد إخوتي هؤلاء الصغار بي فعلتم**». فلا داعي إذا أردت أن تحبّ القريب أن تفكّر في يسوع، أو في الله الذي يختفي من خلفه، بل أحبّ قريبك، وادخل في أعماقه، وهناك تلتقي الإله الحيّ.

وجه الله في وجه القريب

حتّى أجسّد الفكرة السابقة، سأتطرّق إلى الحديث عن وجه الله. كيف نرى الله؟ في إحدى ترانيم الأب منصور لبكي، ننشد «أرنا محياك» أي أرنا وجهك، وكأنّنا نقول مع فيلبّس: «**يا ربّ،**

أرنا الآب وحسبنا» (يو ١٤/ ٨)، ويجيبنا يسوع: **«مَن رآني رأى الآب. فكيف تقول: أرنا الآب؟»** (يو ١٤/ ٩). وهو أيضًا الذي قال: **«كلّما صنعتم شيئًا من ذلك لواحد من إخوتي الصغار، فلي قد صنعتموه»** (مت ٢٥/ ٤٠). وكما قال أحد الآباء «قريبك هو إلهك». فحتّى أرى وجه الله، عليّ أن أنظر إلى وجه الإنسان القريب لي.

هذه الفكرة تمثّل في حياتي مصدرًا غنيًّا للتأمّل في وجه البشر من حولي، فحين أركب قطارًا أو أوتوبيسًا، أو حين أنتظر مجيء الترام، أو حين أجلس في مكان عامّ. بالطبع أستطيع أن أقرأ أحد الكتب، وهو عمل مفيد من دون شكّ، لكنّي أحيانًا أدع كتابي جانبًا وأنظر إلى مَن حولي متأمّلًا. لقد اضطرّتني الظروف في إحدى المرّات إلى أن أنتظر القطار على رصيف محطّة مدينة المنيا لمدّة ساعة تقريبًا. هل أهدرت من وقتي هذه الساعة؟ كلّا، فقد كانت فترة غنيَّة جدًّا يومها، فقد رأيتُ طفلًا في أحضان أمّه، ومن حولهما أخوه يجري ويلعب. ربّما تقول: وما الغريب في ذلك؟ لقد كان في نظري مشهدًا روحيًّا بالرغم من كونه من المناظر المألوفة

عندنا، فالمشكلة تكمن حين يظلّ العاديّ عاديًّا في نظرنا، فنتوقّف على سطح الحقيقة.

هذه هي النظرة التأمّليّة في الحياة، فكلّ ما هو عاديّ يُخفي في داخله معنًى عميقًا، ولؤلؤة ثمينة تشعّ بالنور الإلهيّ. ربّما تسألني كيف؟ وماذا فعلتَ حتّى توصَّلتَ إلى هذه الحقيقة؟ أنا لم أفعل شيئًا غيرَ التفكير والتأمّل، وشيئًا فشيئًا دخلتُ في عمق تعبيرات وجه الأمّ والطفل الرضيع وشقيقه، وفي العلاقة بين الثلاثة، وهناك وجدتُ حقيقة ربّما لا تستطيع الكلمات أن تبوح بمكنوناتها، وإلّا كانت قد وضعت في كتب. من خلال التأمّل نتعلّم حقائق تُسلَّم من الوجدان إلى الوجدان، ومن القلب إلى القلب، يتناولها الفرد ويقول: آمين. حينئذ يجد الله من خلف هذه النظرة، وتلك الابتسامة، فيتأكّد أنّه لكي يحبّ الله عليه أن يحبّ هذا الوجه، وجه القريب.

وثمَّة وسيلةٌ أستعملها أحيانًا في الرياضات الروحيّة والندوات، يُطْلَق عليها اسم «لغة الصور» Photo langage، وهي عبارة عن مجموعة من الصور المعبِّرة، حصلتُ عليها من المجلّات والصحف، ثمّ ثبّتها على ورق مقوّى

لاستعمالها بغرض أن ينظر إليها الشخص، ومن خلالها يستشفّ الوجود الإلهيّ الذي يتجلّى في وجه هذا الطفل، أو ذاك المسنّ، أو تلك المرأة. ومن خلال هذه الحركة ننمّي في داخلنا النظرة التأمّليّة في ما حولنا. ويحدث ذلك مرّات عديدة في صلاتي اليوميّة، وبدلًا من أن أفتح كتابي المقدّس أو أيّ كتاب روحيّ آخر، أضع واحدة من هذه الصور أمامي، وأستعيض عن التفكير في إحدى الأفكار الدينيّة بإلقاء نظرة تأمّليّة في هذه الصورة، ومن خلالها أتذوّق الله. فأنا أنظر إلى الصورة بإمعان، ثمّ أُغمض عينيّ، وأفتح عينيّ مرّة أخرى لأنظر إليها.. ثمّ أغمض عينيّ، وهكذا، حتّى أستنفد جميع معانيها التي تغذّيني وترفعني.

هذه هي لغة الأوجه، ولا يُشترط أن تكون هذه الصورة رائعة من الناحية الفنّيّة، فعادة أفضّل أن تكون عاديّة. وحين أتصفّح المجلّات، أهتمّ بالصورة الشفّافة البرّاقة. فليس كلّ صورة أو وجه يُشعّ بالحضرة الإلهيّة، فالقليل من الصور يكون مثل كتاب مفتوح، وقمّة الفنّ أن تعثر على صورة من هذا النوع في المجلّات، بشرط أن تكون

مُعبِّرة عن حقيقة ما. فهناك ابتسامات غير مُعبِّرة مثل ابتسامات فنّاني المسرح والسينما، فنادرًا ما تجد لأحدهم صورة معبِّرة لأنّه يمثّل.

حين تعثر على إحدى هذه الصور التي تراها معبّرة خذها وقبّلها، مع أنّ بعضهم لا يسمع إلّا بتقبيل الصور الدينيّة، مثل القدّيسة تريزا والقدّيس يوسف... إلخ، هذه في نظرهم هي الصور المقدّسة، أمّا ما يرونه من صور على صفحات المجلّات فمن المحال أن تكون كذلك. وكأنّنا شطرنا العالم إلى قسمين: قسم خاصّ بالمقدّسات متوافر في المكتبات الدينيّة والكنائس، ثمّ العالم العاديّ غير المقدَّس كما يبدو لهم.

والقريب قد يكون ملاك الله المرسل إليَّ

أنا الآن مكتئب ومتضايق، ألتقي صديقًا يبستم لي ويسألني عن أحوالي، فأردّ عليه: الحمد لله أشكرك. هذه الابتسامة خلقت في داخلي شعاعًا من الأمل أنعشني، إنّها ابتسامة الله، وكأنّه سبحانه وتعالى جلس يفكِّر كيف يبثّ فيَّ روح الأمل، فكلَّف هذا الشخص بهذه

القريب قد يكون ملاك اللّه المُرسَل إليّ

المهمَّة، وهو الآن سعيد لأنّه أرسل إليَّ ابتسامته عن طريق هذا الصديق، وهذا هو معنى الملائكة.

كثيرًا ما نفكِّر في أنَّ الملائكة مخلوقاتٌ تهبط من السماء، ترتدي ملابس ناصعة البياض، وترفرف بأجنحة طويلة. هكذا تخيّلنا الملاك وصوَّرناه في الكنائس. لكن لو طالعنا كتابنا المقدَّس، وحاولنا معرفة مَن هم الملائكة، سنرى أنّهم بشرٌ مثلنا، اختارهم الله وأرسلهم للقيام بمهامّ معيَّنة. ويجدر الذكر هنا أنّ كلمة ملاك باليونانيّة، وهي اللغة التي كُتب فيها **العهد الجديد**، تُكتَب (Angelos) أنجيلوس، وتعني مُرسَل.

إنطلاقًا من هذه الفكرة، يمكننا القول إنَّ الله ما زال يرسل ملائكته إلينا حتّى اليوم. حين كنتُ أذهب إلى الإسكندريّة لزيارة والدتي رحمها الله، وكانت تقابلني ببشاشة، تسألني عن أحوالي، متى نمتُ، وكيف استيقظتُ، وماذا أكلتُ، وهل أشعرُ بالجوع؟ ثمّ تنهض لتعدّ لي غذاءً خفيفًا مُكَوَّنًا من بيضتَيْن. كنتُ أنظر إلى يديها وإلى البيضتَيْن، وأقول: يا ربّ، هاتان ليستا يَدَي

أمّي، بل يداك. فهو يريد ان يرسل إليّ طعامًا، فاستخدمَ يدَيها، وأنا أتأمّل وأقول: شكرًا، شكرًا لوالدتي، وشكرًا لله في الوقت نفسه، وكأنّ هاتَيْن البيضتَيْن قد نزلتا للتوّ من السماء. وأنظر إلى والدتي وأقول: حقًّا هذا هو ملاك الربّ، ومن خلال نظرتها وابتسامتها أرى نظرة الله وابتسامته. فحبَّذا لو ننمّي في داخلنا هذه النظرة التأمّليَّة: الله موجود داخل البشر، والملائكة لا ينحصر وجودهم في ميخائيل وجبرائيل وروفائيل وعزرائيل، بل هم أكثر من ذلك بكثير.

حين أكون في مأزق، غارقًا في مهامّي الكثيرة، يرسل الله إليّ ملاكًا، بل ملائكة، ليساعدوني في أعمالي. وفي كلّ يوم هناك الكثير من الملائكة في حياتي. قد تقول: أنتَ قدّيس إذن؟ نعم، أنا أتعامل مع الكثير من الملائكة في حياتي. فيكفينا أن نفتح عيوننا لنكتشف الملائكة الذين يرسلهم إلينا الربّ. هذه الممرِّضة التي ترعى مرضاها، يداها هي يدا الله، وكوب الشاي الذي يُقدَّم إليَّ في منزل أحد أصدقائي، من أين أتى؟ إنّه من عند الله. لذلك، قد لا أصلّي قبل الأكل، لكنّي أصلّي حين أشكر مَن حولي، لأنّ

شكري لمضيفي هو شكر للذي أرسله وهو الله، وساقا أمّي النحيلة التي كانت تسير ببطء هما ساقا الله. وحبّذا لو ننمّي في أنفسنا المقدرة على الانتباه إلى مَن وما حولنا بهذه النظرة التأمّليّة الشفّافة.

الخلاصة

الله موجود في قلب حياتنا، ونحن نصرّ على أن نكون على السطح، هذه هي النقطة. وهنا يأتي دور الصلاة والتأمّل، ففي حياتنا رسائل كثيرة من الله ونحتاج إلى هدوء حتّى نلتقطها. هذا يذكّرني بمقولة الشاعر اللبنانيّ ميخائيل نعيمة: «سألتُ ربّي مرّة: أين أنتَ. فأجابني: بل أين أنتَ؟ أنا الغائب وهو الحاضر. والصلاة هي الحضور للوطن، ووطني هو الله. هي الحضور لحياتي، وحياتي هي الله. هي الحضور لتجربتي اليوميّة، وهذه التجربة هي الله».

كثيرًا ما يكون موضوع تأمّلي اليوميّ هو حياتي، فلا أنطلق من نصّ إنجيليّ، أو من سيرة أحد القدّيسين، ولا حتّى من كتاب روحيّ، بل أتأمّل في حياتي، وليس حياتي على وجه العموم، بل على سبيل المثال مشهد القطّة وصغارها، أتأمّل بمعنى أتمتّع في الوقت نفسه.

فمن خلال الصلاة نكتشف بصورة أوضح وحدة الحياة. فنحن مشتّتون وفي احتياج إلى أن نجد ركيزة لحياتنا، ولا يوجد محور أو مركز إلّا في الله، وكلّ الكون يدور عليه، فإن لم تجعل منه محورًا لحياتك سوف تظلّ في حالة التشتّت والضياع. وسرّ الصلاة ليس بالهروب من العالم، بل الغوص فيه حتّى نجد مركز الحياة في الصميم. عندئذ لن تصبح حياتنا بعيدة عن الله، بل ستكون طريقنا إليه، ووسيلة للارتقاء إليه، وبهذا نجد الله في قلب حياتنا.

إذًا وجوه الله كثيرة، وعلينا أن نكتشفها في حياتنا العاديّة اليوميّة. ولكن شاء الله، حتّى نستطيع أن نركّز في وجه معيّن وشخص معيّن، أن يتّخذ صورة واحدة ووجهًا واحدًا في شخص يسوع الناصريّ. فمن بين الألف وجه التي قابلتها اليوم، ومن بين الألف شخص الذين التقيتهم اليوم، هناك وجه معيّن هو وجه يسوع الناصريّ، له سمات وصفات خاصّة به وحده، ذكر وليس أنثى. شابّ وليس مُسنًّا. عبريّ وليس أمريكيًّا.. إلخ. ومَن قرأ عن الكفن المقدّس سيعرف أنّ هذه الصورة من أجمل صور المسيح التي طُبعت،

لأنّها صورةٌ حقيقيّة من وجهة نظري.

«مَن رآني رأى الآب» (يو ١٤/٩). طبعًا، جميع الوجوه هي وجوه الله، لكنّ هذا الوجه بصفة خاصّة أراد الآب أن يختاره حتّى يُظهر لنا صورة المسيح، فحبّذا لو تأخذ هذه الصورة وتتأمّلها. ولأنّنا لا نستطيع أن نحبّ الله من خلال ألف وجه، أراد سبحانه وتعالى أن يتّخذ وجهًا معيّنًا. كذلك الحضرة الإلهيّة موجودة في كلّ مكان، لكنّه أراد أن يجسّدها في ما نسمّيه القربان المقدّس. هو موجود في كلّ مكان، لكنّه موجود هنا بصفة خاصّة.

الفصل الثاني

ملكوت الله غير ما تتصوّره
الله أكبر... الله أصغر

الله أصغر

إنَّ هذا العنوان يصدم أسماعنا للوهلة الأولى، فقد تعوَّدنا سماع نداء المؤذِّن للصلاة وهو يقول: «الله أكبر. . . الله أكبر»، وهذا النداء من أجمل ما يكون، يطرق أسماعنا خمس مرّات يوميًّا، لذا ألفنا سماعه. والآن نريد أن نتساءل عن مغزى هذه الكلمات، وماذا تعني؟

الله أكبر. . أكبر مثل ماذا؟ وإلى أيّ مدى هو كبير؟ هل هو كبير في حجم هذا العمود، أم أكبر منه؟ أم تراه في حجم عمارة مكوّنة من عشرة طوابق؟ أم لعلّه في حجم هرم خوفو؟ بل ربّما يكون في حجم جبل سيناء؟ أم إنَّه يطاول جبل أفرست في الارتفاع؟ بل قد يكون كبيرًا كالمسافة بين الأرض والشمس. بالتأكيد، هو أكبر من كلّ هذا. فلنحاول في هذا الفصل أن نفكّر في أبعاد قدرة الله وعظمته.

للوهلة الأولى حين نتحدّث عن قدرة الله

وعظمته، ينصرف ذهننا إلى المقاييس المادّيّة، وكأنّ الله يُقاس بالأمتار والكيلومترات وبطول المسافات. والآن علينا البحث عن معايير أخرى لقياس عظمة الله وقدرته.

ثمَّة مسافات مادّيّة ومسافات روحيّة، كما أنّ هناك عظمة مادّيّة وعظمة روحيّة. وحتّى نفهم الفرق نتَّخذ من الدائرة مثالًا: فهذه دائرة نحاول أن نجعلها أكثر اتّساعًا لتشمل كلّ الكون، ونتصوَّر أنّ الله هو مركز هذه الدائرة الكبرى التي اتّسعت لتشمل العالم، بل أكبر من العالم، لأنّ إطار الله يحوي بذاته كلّ العالم. ففكرتنا التقليديّة عن الله أنّه أوسع من الكون وأشمل، لكن لنتصوَّر أنّه سبحانه لا يُمثِّل الدائرة في اتّساعها، بل في مركزها. فالمركز هو النقطة الصميميّة للدائرة، فكلّها تتمثّل في هذه النقطة الصغيرة، وكأنّها امتداد لها.

مرّة أخرى نعود لنفكّر في كيان الله، فهو ليس أوسع من كلّ ما هو واسع، ولا أكبر من كلّ ما هو كبير، لكنّه النقطة المركزيّة التي يتمحور عليها الكون، وهو في كلّ مكان لأنَّ لا مكان له، وهو القريب البعيد.

أودّ في هذا الصدد أن أصحِّح مفهومًا شائعًا عن الله، فهو داخل كلّ موجود، وحتّى يكون كذلك يجب ألّا يكون هذا الوجود بشكل مكانيّ، أي في صورة حيّز معيّن يشغله، لكنّ وجوده على هيئة نقطة صغيرة جدًّا متناهية في الصغر، حتّى إنّها تكمن وتتلاشى داخل كلّ وجود، ولذلك نحن لا نراه، ومن غير الممكن أن نراه، وليس لأنّه كبير جدًّا، بل لأنّه صغير جدًّا. فلو أردتُ أن أعبِّر عن ذلك أستطيع أن أقول إنّ الله هو صميم الصميم ومركز المراكز، وهو النقطة الأعمق في كلّ كائن وكلّ مخلوق، هو قلب الوجود، قلب الأشياء، وقلب العالم. هو القلب، لذا هو في الصميم.

هذا يقودنا إلى الحديث عن ملكوت الله، لأنّنا غالبًا ما ننظر إليه بنظرة سطحيّة. وسوف أتناول هذا الموضوع من جانبَيْن هما عظمة الله وقدرته، وكيف نتصوّرهما.

١

عظمة الله غير ما نتصوَّرها

غالبًا ما نتصوَّر أنّ الله يملك على عرش بطريقة دنيويّة، أي إنّه يسيطر على العالم من أعلى السماوات، كأن يرسل ملائكته إلى الأرض حتّى يوصِّلوا إلى الناس أوامره، كما يرسل الأنبياء إلى الإنسان لكي يهديه ويرشده، في حين أنّه بعيد يجلس على العرش في أعلى السماوات.

هذا هو المفهوم السائد لدينا، إذ إنّنا تعوّدنا من خلال قراءتنا **الكتاب المقدّس** أن ننظر إلى الله على أنّه ساكن في أعلى السماوات. وفي رأيي، لو كانت هذه الصورة تعكس طريقة مُلك الله بطريقة صحيحة لكانت في قمّة السطحيّة. لكنّ الله يملك في قلب الوجود، وملكه بالتالي ملك صميميّ داخليّ، وهو يقود الكون والتاريخ من الداخل لا من الخارج، فلا يتحكّم فيهما بأوامر

خارجيّة، بل بإرشاد داخليّ بالوحي وبالروح.

«فها إنّ ملكوت الله بينكم» (لو ١٧/ ٢١)، قالها المسيح في الإنجيل، لكنّنا لم نتوقّف على كلماته بالتأمّل فيها، وما زلنا نتصوَّر الله في صورة سيّد يسكن في الأعالي، ويقود كلّ شيء من بعيد بالملائكة، أو عن طريق التحكُّم عن بعد (Remote control). لكنّ ملكوت الله في داخلنا، ووجوده في داخلنا، وسيادته في داخلنا. هذا هو الملك الحقيقيّ، يختلف عن ملوك الأرض الذين يملكون بالسلطة والقوّة والأوامر، سلطة سياسيّة تقوم على العظمة والعنف والضغط، وترتكز على رجال البوليس والمباحث والمخابرات.

لكنّ النقطة الجوهريّة التي يختلف بها المسيح عن كلّ مَن سبقه من ملوك تكمن في أنّ مملكته روحيّة، وقد قال إنّ مملكته ليست من هذا العالم، في الوقت الذي كان اليهود ينتظرون منه أن يكون ملكًا سياسيًّا عليهم، لكنّه لم يرد أن يخدعهم، فملكه مبنيّ على الإقناع والاقتناع، على الحرّيّة والاختيار، على الحبّ. فهو لا يُحرِّك العالم من الخارج، بل من الداخل عن

طريق الحرّيّة، وتأثيره يأتي من خلال حرّيّة الإنسان بقبوله ورضاه. وسوف نحاول في ما يلي تتبّع أسلوب المسيح أثناء رحلة حياته على الأرض منذ البداية، حتّى نرى الدليل على ذلك.

وُلِد مهاجرًا

عندما أراد الله أن يتجسَّد، قد نتصوّر أنّه، وهو في أعلى السماوات، كما اعتدنا أن نتخيّله، بحث عن مكان لائق به ليولد فيه ابن الله، ملك الملوك وربّ الأرباب. فمن البديهيّ لنا أنّه لو أتى إلى الأرض لاختار عاصمة العالم ليولد فيها، والتي كانت في ذلك الوقت متمثّلة في رومة الخالدة العظيمة، عاصمة الإمبراطوريّة العالميّة، حيث يملك فيها القياصرة. وعلى هذا، حين يريد الله أن يتجسّد، فلا مكان أنسب من رومة، لكنّه نظر إلى رومة واحتقرها، وراح يبحث عن مكان آخر.

ثمّ نظر إلى أثينا والإسكندريّة، المدينتَيْن اللتَيْن تمثّلان الحضارة والثقافة والفلسفة، وقمّة الإشعاع في علوم شتّى، فبالطبع لا يوجد مكان أنسب للكلمة، للحكمة الإلهيّة، ليولد فيهما،

حيث العباقرة والفلاسفة والمفكّرون والأدباء، لكنّه نظر إلى كلتا المدينتَيْن واحتقرهما.

ماذا تريد يا ربّ؟ ربّما لأنّك القدّوس فالأجدر أن تولد في مدينة أورشليم، المدينة المقدّسة حيث يوجد قدس الأقداس والهيكل المقدّس. أليس هذا المكان مناسبًا لك يا ربّ؟ لكنّه نظر إلى أورشليم، إلى الهيكل، وإلى قدس الأقداس باحتقار.

لقد ترك رومة، وترك أثينا والإسكندريّة، وترك أورشليم، وراح يبحث بين مدن العالم، وتوقّف على قرية صغيرة محتقرة، واختار فتاة صغيرة بسيطة «**لأنّه نظر إلى أمته الوضيعة**» (لو ١/ ٤٨). لقد اختار قرية بيت لحم من دون أمجاد رومة، وحكمة أثينا، وقداسة أورشليم، وقرّر أن يولد مهاجرًا غريبًا في مغارة بقرية صغيرة هي بيت لحم.

فرَّ فرارَ لاجئٍ سياسيّ

وها هو هيرودس يفتّش عن ملك اليهود المرتقب، ويسأل من حوله: أين يولد ملك اليهود؟ فهو يخشى ملكًا ينافسه على عرشه. لكن

لم تحدث منافسة بين المسيح وهيرودس، ولا بينه وبين بيلاطس، ولا بينه وبين قيصر، فقد اختار الهروب من أمام هيرودس والذهاب إلى مصر. هل تهرب يا ملك في هذه الظروف؟ أين عظمتك؟ الله أكبر... كلّا، بل الله أصغر. أصغر لأنّه اتّخذ هيئة طفل طريد، في صورة لاجئ، ثمّ أصغر لأنَّه مواطنٌ عاديّ يقطن مدينة الناصرة عاملًا بسيطًا في ورشة نجارة.

وقف في طابور الخطأة

هذا المنهج قاده إلى نهر الأردنّ، وهناك يقف هذا الإنسان، ابن الله المتجسّد، أعلى صورة لله على الأرض، عريانًا في النهر ليأخذ دوره مع الخطأة، وليعتمد من يوحنّا المعمدان الذي صاح متعجّبًا: «**أنا أحتاج إلى الاعتماد عن يدك، أوأنتَ تأتي إليّ؟**» (مت ٣/ ١٤). لقد هبط إلى أدنى درجات التواضع والاحتقار، خاطئ مع الخطأة. الله أكبر؟ كلّا، بل الله أصغر، أصغر المخلوقات وأحقرها، إنّه لمنطق غريب.

رفض عمل معجزات لإظهار قوّته

وحين أراد أن يبدأ حياته الرسوليّة اقتاده

إبليس إلى البرّيَّة ليجرِّبه: أتريد أن تملك؟ مُر أن تتحوّل هذه الحجارة إلى أرغفة خبز، حتّى يكون لك نفوذ لدى الجماهير، وتكون مُنقذ شعب جائع. ورفض المسيح هذا الأسلوب.

ثمّ يقوده إلى قمّة الهيكل، ويطلب إليه أن يلقي بنفسه حتّى تحمله الملائكة، فيرى الناس ذلك ويهتفون له الله أكبر... الله أكبر. كلّا، فمملكته كما قال ليست من هذا العالم، وهو لا يريد أن يملك بالقوّة والشعوذة، ولا بالمعجزات والعجائب.

ثمّ قاده أخيرًا ليريه جميع ممالك الدنيا ومجدها، وقال له: أعطيك كلّ هذه إن خررتَ لي ساجدًا، فردّ عليه: لا تجرّب الربّ إلهك.

وكلّما طُلبت إليه معجزة لإظهار قوّته كان يرفضها (مت ١٦/ ١-٤)، وأيضًا عندما أراد الشعب أن يقوده ليجعله ملكًا عليهم رفض ذلك (يو ٦/ ١٥). وعندما أعلن بضرورة صلبه وآلامه للتلاميذ، وقال له بطرس: حاشا يا ربّ، انتهره وقال له: أبعد عنّي يا شيطان، فأفكارك هي أفكار بشريّة (مت ١٦/ ٢١-٢٣).

وصلني منذ فترة فيلم في شريط ڤيديو من أمريكا، عنوانه: :«Oh, God» أي يا الله. يحكي عن شابّ غير متديّن، يظهر له الله في صورة إنسان عاديّ، يخاطبه في السوبرماركت، وفي حجرته، وفي محطّة البنزين، ممّا دعاه إلى الإعلان بأنّه يشاهد الله، وهذا دفع المحيطين به لاتّهامه بالجنون وتقديمه للمحاكمة، حيث يظهر الله ليدافع عنه. وحتّى يؤكّد أنّه الله يعمل بعض الحركات والشعوذة، فالكرسيّ يختفي ثمّ يظهر، وحركات أخرى مشابهة، بهدف إقناع الموجودين بأنّه الله. ونحن ننتظر منه معجزات مذهلة مفحمة تقودنا إلى الاقتناع بأنّه الله. هذا الفيلم لم يعجبني إطلاقًا، لأنّه يظهر الله بصورة مناقضة لصورته التي ظهرت في المسيح.

ويرفض الدفاع عن نفسه

وفي بستان جتسماني جاؤوا ليقبضوا عليه، فأراد بطرس أن يقتل خادم رئيس الكهنة، واستلّ سيفه وضربه، فقال له: أردد سيفك إلى غمده، ألا تظنّ أنّني أستطيع أن أدعو الله فيرسل إليَّ أكثر من اثنتي عشرة جوقة من الملائكة؟ (مت ٢٦/

٥١-٥٤). لكن كيف يكون ذلك؟ كيف يتمّ الخلاص بطريقة غير طريق الضعف. وسلّم نفسه كما يُسلَّم المجرم، كبشر عاديّ. ثمّ أصبح لعبة للجنود والعسكر، هذا يبصق، وذاك يضرب، بعد أن وضعوا على رأسه إكليلًا من الشوك وعرّوه... الله أصغر.

وقيامته حدثت سرًّا

وأخيرًا في قيامته أيضًا، اختار أن تكون سرّيّة وفي الخفاء ليلًا. كنّا نريد قيامة مجيدة مذهلة، قيامة مُشرِّفة، لكنّه أراد أن تتمّ في الخفاء، كلّ ذلك حتّى يشير إلى اتّجاه معيّن، وهو أنّ عظمته ليست بمعاييرنا، فهو يرفض دائمًا الظهور بمظهر العظمة.

والصليب هو معجزته الكبرى

معجزة المسيح الكبرى تجلّت في حبّه، وظهرت على الصليب، ومعجزة العهد الجديد هي التواضع. الله هو العظيم لأنّه الوديع والمتواضع القلب، وحين أراد أن يعلن بكيانه قال: «**إحملوا نيري وتتلمذوا لي، فإنّي وديع متواضع القلب**» (مت ١١/ ٢٩). هذه هي شهادة

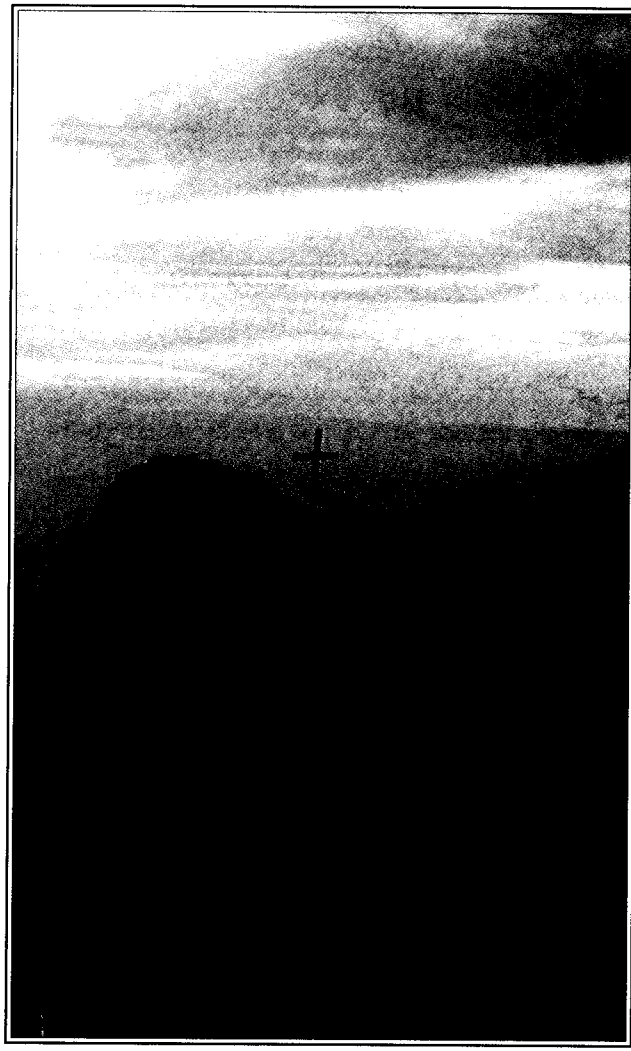

الصليب هو معجزته الكبرى

المسيح، وكلّ حياته منذ الولادة، مرورًا بالمعموديّة، فالصليب، بل وحتّى القيامة، كما أوضحتُ تعلن أنّه وديع ومتواضع.

كأنّه يقول من خلال ذلك: لقد نزلتُ إلى أسفل درجة، ومهما احتقروكم فقد احتقروني أوّلًا. هو الأعلى لأنّه الأدنى، وهو الأوّل لأنّه الأخير، وهو الكلّ لأنّه اللاشيء. لقد تلاشى وأخلى ذاته، فمع كونه إلهًا، لم يتمسّك بألوهته ومرتبته الإلهيّة، بل أخلى ذاته آخذًا صورة عبد، في حركة تنازل غير محدودة. وإن كان الله تفوّقًا، فتفوّقه الوحيد الذي أراده في الإنجيل هو تفوّق الحبّ، وعرشه هو قلب الإنسان.

والحبّ هو لغته الوحيدة

بخلاف الحبّ لا شيءَ تستطيع من خلاله أن تكسب قلب الإنسان، لا نقود ولا هدايا ولا قوّة ولا علم ولا حكمة ولا... فمَن مرَّ بتجربة حبّ يعلم ماذا أقصد بهذا، فإن أردتَ كسب قلب فتاة ماذا تفعل؟ هل بالهدايا، أم بالمؤهِّل، أم بالقوّة، أم بالمركز، أم بالمكانة الاجتماعيّة؟ أنا عندي رصيد بالبنك، ووالدي يعمل مديرًا، ثمّ ماذا

بعد؟ ثمَّة بابٌ واحدٌ به تصل إلى قلوب الآخرين، إنّه باب التواضع والبساطة والحبّ، فالقلب لا ينفتح بوسيلة أخرى غير الحبّ.

نستطيع أن نتصوَّر أنّ الله تفنَّن في العهد القديم ليكسب ودّ الإنسان، قام بأعمال عظيمة على جبل سيناء، من زلازل وبراكين، وصواعق، وآيات ومعجزات، تعامل مع شعب غليظ الرقبة متحجِّر القلب، لا يريد أن يفهم، أبهره بكلّ ما يستطيع أن يعمل من آياتٍ وعجائب، ولم يكسب قلب الإنسان، لم ينجح أسلوب العظمة والقوّة مع الإنسان. فأراد الله في العهد الجديد أن يتّخذ وسيلة عكسيّة تمامًا للوسائل التي سبق ومارسها في العهد القديم، لم يُظهر ذاته بالقوّة، بل أخلى ذاته بالتواضع. «**فإنّ لغة الصليب حماقةٌ عند الذين في سبيل الهلاك، وأمّا عند الذين في سبيل الخلاص، أي عندنا، فهي قدرة الله**» (١ قور ١/ ١٨).

لا أعرف غيرَ المسيح وإيّاه مصلوبًا

والآن حتّى يقتنع الإنسان بالله، فهو لا يحتاج إلى البراهين والمنطق، لكن أمامنا صورة

المصلوب، هذا هو البرهان النهائيّ للقلب والوجدان، ولا للفكر والمنطق. فإن أردتَ أن تقتنع، انظر صوب هذا المصلوب، وتأمّل قلبه المفتوح. فسرّ الصليب هو أعظم أسرار المسيحيّة: «**فإنّي لم أشأ أن أعرف شيئًا، وأنا بينكم، غير يسوع المسيح، بل يسوع المسيح المصلوب**» (١ قور ٢/ ٢). لماذا يلحّ بولس الرسول على هذه النقطة؟ والجواب أنّ المسيحيّة إذا افتقدت هذه الصورة فسوف تفقد أهمّ ما يميّزها، والقدّيس يوحنّا الرائي حين أراد في **سفر الرؤية** (رؤ ٥/ ٦) أن يتحدّث عن عرش الله، يذكر علامة كبيرة في السماء: عرش عظيم، وملائكة تنتظر مَن يا ترى على العرش؟ مَن هو ملك الملوك؟ إنّه حمل مذبوح.. ألم يجد سوى الحمل أضعف الحيوانات؟ لماذا لم يتّخذ الأسد رمزًا؟ لقد اختار الحمل، بل والمذبوح ليشير إلى قمّة الضعف.

ما دمنا لم نستوعب هذا المفهوم، منطق المصلوب، منطق جراح المسيح، منطق القلب المطعون، منطق الحمل المذبوح، لن نستطيع أن نفهم سرّ المسيحيّة. فدليل الأدلّة، وبرهان

البراهين هو الحبّ. هذا هو الإيمان المسيحيّ.

أخلى ذاته

هناك نوعان من الإيمان: الإيمان الطبيعيّ، والإيمان المسيحيّ. فالأوّل هو الإيمان الموضَّح في بعض المزامير وفي **القرآن**، حين يقول انظر آيات الشمس والقمر والكواكب، إنّها لآيات لأولي الألباب. هذا صحيح، وأيّ إنسان يجد نفسه مضطرًّا إلى الاعتراف بمجد الله من خلال عظمة الخلق، التي تشير إلى عظمة الخالق وحكمته. هذا هو الإيمان الطبيعيّ المتوافِر لدى أيّ إنسان، باستثناء أن يكون أعمى أو متخلّف عقليًّا.

لكنّ هناك إيمانًا من نوع آخر (الإيمان المسيحيّ)، فهو لا يقوم من خلال الاعتراف بآيات الله في الطبيعة، ولا من خلال الاعتراف بحكمته وقدرته، ولا الاعتراف حتّى بحبّه المتجلّي في الطبيعة. لكنّه يتمحور على مضمون الآية: «**هكذا أحبَّ الله العالم**»، حتّى نزل وتواضع وأصبح إنسانًا «**بل تجرّد من ذاته متّخذًا صورة العبد**» (فل ٢/ ٧)، فأصبح مصلوبًا،

بل وأصبح أضعف البشر، حتّى يكسب قلب الإنسان ويدخل فيه.

ونزل إلى الجحيم بالصليب

هناك عبارة قد لا تستوقفنا كثيرًا عند تلاوة قانون الإيمان، وهي موجودة أيضًا في القدّاس القبطيّ: «ونزل إلى الجحيم بقوّة الصليب». قد لا تكون أدركتَ عزيزي القارئ مدى عمق هذه الكلمات. فما معنى نزل إلى الجحيم؟ لم يكتفِ بالصلب وهو قمّة المذلّة، لكنّه نزل إلى الجحيم، وهو أسفل من الموت، بل قل إنّه مملكة الموت، ومملكة الشرّ والظلام. لقد أراد أن ينزل إلى أسفل مستوى، حيث مكان الهالكين والأموات. لذلك هو الملك، لأنّه احتلّ المكان المركزيّ، فلا يوجد مكان في العالم خارج مملكته، حتّى الشرّ نفسه. نزل إلى الجحيم واحتلّ مركز الكون.

أصبح خطيئة بحسب القدّيس بولس: «**ذاك الذي لم يعرف الخطيئة جعله الله خطيئةً من أجلنا كيما نصير فيه برّ الله**» (٢ قور ٥/ ٢١)، بمعنى أنّه تقمَّص الخطيئة، وحتّى الخاطئ في صميم خطيئته

يستطيع أن يمجِّد المسيح في شكل الرحمة، في هيئة الراعي الصالح الذي يذهب للبحث عن الخروف الضالّ. فليس هناك مكان في السماوات أو تحت الأرض لا يوجد فيه المسيح، لكن في أيَّة صورة؟ في صورة التواضع.

قبول الإنسان شرط ملكوته

لذلك هو الوحيد الذي يتصدَّر التاريخ بالرغم من توالي الملوك والحكّام والرؤساء والقادة والزعماء. مات ذو القرنَيْن، ومات يوليوس قيصر، ومات قسطنطين، ومات نابليون، وهتلر، وديغول... لكن هناك شخص واحد مات وقام فأصبح محور التاريخ. لماذا؟ لأنّه اختار الأسلوب الوحيد الذي من خلاله يستطيع أن يملك. ملك المسيح يختلف تمامًا عن أيّ ملك آخر، لأنّه احتلّ المركز باتّضاعه وإخلاء ذاته.

أريد أن أتساءل: هل المسيح يملك فعلًا؟ والإجابة تكون بنعم ولا. لماذا لا؟ لأنّه لا يستطيع أن يدخل قلب الإنسان إلّا بموافقته **«هاءنذا واقف على الباب أقرعه»** (رؤ ٣/ ٢٠). فقبول الإنسان شرطٌ أساسيّ لملك المسيح، فهو

لا يدخل فيه اغتصابًا ولا عنوة، إذًا مُلكه مرتبط بموافقة كلّ منّا وحرّيّته الشخصيّة. أصبح المسيح كالمتسوِّل، إنّه شحّاذ الحبّ يستجدي حبّنا إيّاه، وبهذا الأسلوب يسلب قلبنا، ومن خلال هذه الطريقة لا نستطيع أن نظلّ سلبيّين أمامه. سلاحه هو حبّه وتواضعه: «**طوبى لفقراء الروح فإنّ لهم ملكوت السموات. طوبى للودعاء فإنّهم يرثون الأرض**» (مت ٥/ ٣ و٤). فالوداعة والفقر هما أسلوبه، وهذا هو البرهان، وهذا هو طريقه إلى قلب الإنسان.

خاتمة

نتذكَّر حين كان المسيح مع المرأة السامريّة، وسألته: «**يا ربّ، أرى أنّك نبيّ. تعبَّد آباؤنا في هذا الجبل، وأنتم تقولون إنّ المكان الذي فيه يجب التعبّد هو في أورشليم. قال لها يسوع: صدّقيني أيّتها المرأة، تأتي ساعة فيها تعبدون الآب لا في هذا الجبل ولا في أورشليم... إنّ الله روح، فعلى العُبَّاد أن يعبدوه بالروح والحقّ**» (يو ٤/ ١٩-٢١ و٢٤). أراد بذلك أن يقول لنا: لا يوجد معبد ولا هيكل، لا مكان يتّسع لملكوت

الله، فلا تحاول أن تحدّد إقامته في مكان معيّن. الله روح وحقّ، ومُلكه لم يعد في مدينة مقدّسة أو هيكل مقدّس، فقلب الإنسان هو عرش الله.

الله أكبر بتواضعه وصغره... الله أكبر لأنّه أصغر... وأضعف من كلّ ضعيف.. إنّه الوديع والمتواضع القلب، مركز الكون ومركز قلب الإنسان.

٢

قدرة الله غير ما نتصوَّرها

«الله على كلّ شيء قدير»: عبارة كثيرًا ما تتردَّد حولنا، لكنّ هذه الفكرة جعلتنا نتصوَّره في صورة فرعون، كشخص يطحن الإنسان ويقهره. وهذه النظرة وضعت الإنسان في حالة عبوديّة وألغت كيانه. لكنّي أعتقد أنّ هذه الصورة التي قد نكون قدَّمناها إلى الناس عن الله هي صورة مزيَّفة إلى حدٍّ كبير، فقد جعلنا منه منافسًا للإنسان، وكأنّه سبحانه وتعالى يقول: أنا الله، وأنت عبدي، أنا فوق، وأنت تحت، إيّاك أن ترفع رأسك وإلّا حطّمتك، فقط عليك أن تعبدني وتسجد لي.

مجد الله في الإنسان الحيّ

أصبحنا نتصوَّر أنّه كلّما حطّ الإنسان من

ذاته، سعد الله بهذا، لأنّه إن لم يفعل ذلك سيشعر الله بوجود منافس له. والحقيقة عكس ذلك تمامًا، فكلّما تعظّم الإنسان يتعظّم الله، وحين يرفعُ الإنسان رأسه هذا يُسعد الله، وكلّما نما الإنسان يتمجّد اسم الله، ولنتذكّر كلمة القدّيس إيريناوس «**مجد الله هو الإنسان الحيّ**». ما أجمل هذا التعبير وأبلغه، فمجد الله لا يكون في الإنسان العبد المنافق. «**إرفع رأسك يا أخي**»: كلمة الزعيم جمال عبد الناصر الشهيرة، قالها الله من قبل ذلك، ارفع رأسك يا بني ولا تخف، فالله غير محتاج إلى عبيد: «**لا أدعوكم خدمًا بعد اليوم لأنّ الخادم لا يعلم ما يعمل سيّده. فقد دعوتكم أحبّائي...**» (يو ١٥/١٥). والابن لا يهاب والده الذي يفتخر كلّما تعظّم ابنه وازداد في ثقافته وعلمه وقوّته وحكمته. فرح الوالدين يكون حين يصير ابنهما في مرتبة أعلى منهما، هكذا شعور أبينا الذي في السماوات.

هناك نوع معيّن من التواضع يُحطِّم صاحبه نفسيًّا وروحيًّا، وهو تواضع مَرَضيّ، يدعو الإنسان إلى أن يزدري نفسه، فنرى بعضهم يخشى أن يثبت ذاته في مجاله، وكأنّه لصّ يختبئ

ويخفض رأسه. لهذا الشخص أقول: إرفع رأسك يا أخي، فالله لا ينافس الإنسانُ، بل على العكس، كلّما تمجَّد الإنسانُ يتمجَّد الله، وتذكَّر، عزيزي القارئ، ما ذكرته في الفصل السابق، الله لا يكون خارج الأشياء يرفرف حولها، بل هو بداخلها، وكلّما كان الشيء غنيًّا وممتلئًا، ازداد وجود الله فيه. وقياسًا على الفكرة نفسها، كلّما حقّقت ذاتي وملأت كياني، وانطلقت في رحلة النموّ، نما الله في داخلي. فيمكن القول إنّ الله في حالة نموّ في العالم من خلال كلّ ما ينمو ويزداد ويترعرع.

ما أبعد هذه النظرة عن الفكرة السائدة، لكنّها النظرة الحقيقيّة المسيحيّة الكتابيّة. تعوَّدنا أن نجعل من الله «سدّ خانة» في جميع الحالات التي لا يستطيع الإنسان أن يقوم بها، وجميع المشكلات التي يعجز عن حلّها. على سبيل المثال، منذ زمن بعيد تساءل الإنسان عن حقيقة البرق وما سببه، ولمّا كان لا يعلم قال: هو الله. وهذا الرعد ما سببه؟ لا نعلم، إذن هو الله. وخلق الإنسان كيف حدث؟ لا نعلم، إذن هو الله. وماذا بعد الموت؟ لا نعلم، إذن الله.

والطبيب فشل في علاج المريض، إذن نلجأ إلى الله ليشفيه. . . وهكذا.

والآن بعد أن فسّرنا البرق والرعد، ووضعنا نظريّات عن خلق الإنسان، وتقدّم الطبّ ليعالج المزيد من أمراضنا، فقد تغيَّر الوضع كثيرًا، وكأنّ الله بدأ ينسحب شيئًا فشيئًا من حياتنا بسبب هذا التقدّم العلميّ، حيث كان يشغل كلّ ما يمثّل مجهولًا في نظر الإنسان، وكلّ ما فشل في إيجاد تفسيرٍ له، وكلّ ما أخفق في إنجازه. والآن يتقدّم العلم والتكنولوجيا والمعرفة وأصبح مجال سيطرة الإنسان أوسع وأرحب.

وقدرة الله في قدرة الإنسان

أين الله في نظري؟ هل هو في هامش الحياة أم في قلبها؟ وهذه النزعة التي تدفع العلماء إلى اكتشاف المجهول وتوسيع دائرة المعلومات الإنسانيّة مَن مصدرها؟ إنّها نزعة إلهيّة، فهو النور الحقيقيّ الذي ينير كلّ إنسان (يو ١/ ٩)، وهو الذي وصف نفسه بأنّه نور العالم (يو ٨/ ١٢). فبدلًا من أن نرى الله في ما يعجز الإنسان عن تحقيقه، علينا أن نراه في ما تمَّ إنجازه

بالفعل. فحين أقوم بعمل ناجح، يكون الله هو الذي أنجزه بي ومعي وفيّ، ولا وجود لهذا التناقض الذي نتوهَّمه. حين يحقّق العلماء إنجازًا نتساءل متعجّبين: أين دور الله؟ لقد منح سلطته وقدرته وحكمته وعلمه للمخلوق ليطوّر من خلالها العالم ويكمله.

حين يفشل الطبيب في شفاء أخي، أدعو وأقول: يا ربّ اشفه. وحين ينجح الطبيب في مهمّته أقول: لترى يا الله كيف استطاع الطبّ أن يشفيه؟ وكأنّ علينا أن نختار بين الاثنين، فإن نجح الطبّ لا مجال لله، وإن فشل نعطي الله فرصة، واضعين حدًّا فاصلًا بين العالمين. لكنّ الله يستعمل دائمًا وسائل بشريّة وعاديّة لإتمام إرادته وقصده الإلهيّ، ونحن عاجزون عن أن نراه في ذلك.

دائمًا نرى مجال الإنسان نقيضًا لمجال الله. إنّها الازدواجيّة في حياتنا، وهذا ما أطلقتُ عليه (الإله سدّ الخانة)، فهو يسدّ الخانات التي يفشل الإنسان في أن يفكّ لغزها، سواء بعلمه أو بقدراته. الله يحلّ محلّ الإنسان في الحالات الهامشيّة التي لا يقدر عليها.

من الآن عليك ألّا تضع الله في الهامش، هامش العلم والحياة والنشاط، بل ضعه في القلب. الله في داخلنا، داخل البشريّة وداخل التقدّم والعلم والتطوّر، ومجد الله في الإنسان الحيّ. وبدلًا من أن نرى في العلم والتكنولوجيا والتقدّم أنشطة مضادّة لله، علينا أن نفكّر كيف تقدَّم العالم لنرى أنّ الله في صميم الحياة، وهو الإله الحيّ.

الله في صميم العمل البشريّ

إذًا ملكوت الله يتحقّق في كلّ عمل بشريّ، في كلام الأب بولاد، بل في مجهود المستمع إلى المحاضرة. فأنا حين أحاول التعبير عن هذه الحقائق أستخدم كلماتي، لكنّها في الوقت نفسه هي كلمات الله، وأبذل قصارى جهدي لأعبِّر عن الأفكار الموجودة في داخلي، كي أخرجها في أوضح صورة. هذا المجهود الذي أبذله ويظهر من خلال لساني وحركات يدي وتعبيرات وجهي، ثمّ هذا المجهود الذي يبذله المستمع ليستوعب كلماتي. الله موجود في هذا التيّار المتبادل، كما أنّه موجود في كلّ مخلوق يحاول

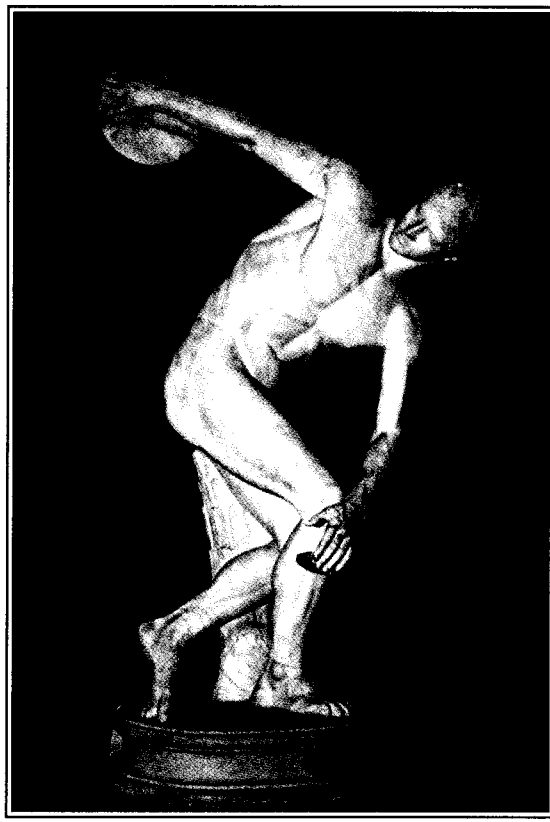

اللَّه موجود في كلّ إنسان يحاول أن يتفوّق

أن يتفوَّق وينطلق وينمو، في هذه الحركة هناك الله.

كثيرًا ما نتصوّر الله كيانًا ساكنًا، جالسًا وربّما نائمًا، معتقدين أنّ الثبات صفة ملازمة للألوهيّة. كلّا، الله هو الإله الحيّ، وهو في حالة مستمرّة من الحركة. الله ليس نائمًا أو جالسًا «... **إنّ أبي ما يزال يعمل، وأنا أعمل أيضًا**» (يو ٥/ ١٧). وهو منذ بدء الخليقة، وحتّى الآن، في حالة مستمرّة من العمل والحركة. بل إنّ كلّ ما يتحرّك الله فيه، وكلّ ما يتفوّق في العالم، يتفوّق الله في داخله، وكلّ ما ينمو في العالم، ينمو الله فيه «**ففيه حياتنا وحركتنا وكياننا**» (أع ١٧/ ٢٨).

من خلال تفوّق الإنسان على ذاته بالعلم والمعرفة والانتباه والنشاط يبرز الله بصورة أعلى، فهذا الميكانيكيّ يرتدي ملابسه وعليها بقع الزيت ورائحة البنزين، يرقد تحت السيّارة محاولًا استبدال إحدى قطعها المعطَّلة، فيكون الله في أصابعه وفي حدقتي عينيه. وفي الفصل الدراسيّ، حين يكون التلاميذ في حالة انتباه شديد إلى المدرّس، يتحقّق الله في حركة الانتباه هذه، كما يتحقّق أيضًا في عقل المعلّم. والجرّاح

الذي يُجري عمليّة جراحيّة دقيقة، يكون الله في مبضعهِ وآلاته. والأمّ التي تُحيك وتحاول إصلاح ما فسد من جورب ابنها، يكون الله في إبرتها وفي عينيها. والممرّضة التي ترعى مرضاها بحنان وشفقة، يتجلّى الله في مشاعرها.

هنا أورد هذا النصّ لتيّار دي شاردان: «**إنّ الله بما فيه من حيويّة وتجسّد ليس بعيدًا عنّا خارج النطاق الملموس، لكنّه ينتظرنا في كلّ لحظة في عملنا، وفي عمل اليوم، وهو مشكّل من طرف ريشتي أو معولي أو إبرتي أو قلبي أو فكري، وأنا عندما أدفع إلى كماله الطبيعيّ من السطر أو النقطة التي كنت مأخوذًا بها، أضع يدي على الهدف الأخير الذي يستقطب إرادتي العميقة**».

إذًا، ملكوت الله يتحقّق من خلال أيّ تفوّق بشريّ، وبصورة عامّة فإنّه يتحقّق من خلال كلّ ما ينمو في العالم، وكلّ ما يتفوّق فيه «**ولن يُقال: ها هوذا هنا، أو ها هوذا هناك. فها إنّ ملكوت الله بينكم**» (لو ١٧/ ٢١).

الإنسان يكمل عمليّة الخلق

في اعتقادنا أنّ الله خلق العالم في الماضي

البعيد، لكنّ الصحيح أنّه يخلقه الآن، فهذه العمليّة تتمّ في الحاضر، وهو سبحانه وتعالى لم ينتهِ منها حتّى الآن، فلو كان قد فرغ منها لكان بإمكاننا أن نناقشه ونقول له هذا العمل غير كامل، وذاك محتاج إلى تعديل، فهناك أشياء كثيرة ينطبق عليها هذا. لكن كما ذكرت، فالله لم يفرغ من عمليّة الخلق حتّى الآن، فهو لم يفصل بعد بين النور والظلام، كما لم يفصل بين المياه التي تحت وتلك التي فوق الجلد، ولم يكمل خلق الإنسان. لكنّ الصحيح أنّ الخلق عمليّة لم تكتمل حتّى الآن، وبالتالي فإنّ اليوم السابع لم يأتِ بعد، ونحن ما زلنا نعيش أحداث اليوم السادس من أيّام الخلق، فلو كنّا في اليوم السابع لاستراح الله، ومن حسن الحظّ أنّه لم يسترح بعد، وهو ما زال يعمل: «**أبي ما يزال يعمل، وأنا أعمل أيضًا**» (يو ٥/ ١٧).

هنا نجد صورتَيْن للخالق: الأولى هي الخلق من خارج المخلوقات، وهي التي ما زلنا نتشبّث بها في ضوء فهمنا لما جاء في **سفر التكوين** الفصلَيْن الأوّل والثاني، ومنها نرى الإله الذي يخلق بطريقة خارجيّة، بأن يتدخّل ويُشكّل

وينفخ. . . إلخ، فنحن نريد إلهًا ظاهرًا وملموسًا حتّى نقول: ما دام الله فعل هذا، إذًا هو الخالق.

ثمّ فتح لنا العلم مجالًا آخر حاليًّا من خلال نظريّة التطوّر التي يرفضها بعض رجال الدين على أساس أنّها تقضي على وجود الله، فهي تفترض أنّ المادّة تطوّرت من تلقاء ذاتها، ثمّ أخرجت الحياة في صورة نبات وحيوان، وأخيرًا ظهر الإنسان على قمّة هذه السلسلة من التطوّر. فأين الله في هذه الرؤية؟

للوهلة الأولى، لا نجد ذكر لله لا في البداية ولا في المنتصف ولا في النهاية، فهو لم يتدخّل ولم يعمل شيئًا، بل الطبيعة هي التي قامت بهذا الدور الجبّار، ولهذا نكون قد ألغينا فكرة الله القديمة. وبسرعة نقول: هذا غير معقول وغير صحيح، ونحاول التمسّك بما جاء في **الكتاب المقدّس**. فنحن ما زلنا ننتظر من الله أن يتدخّل بيديه ورجليه، يعجن ويشكّل وينفخ، لكي نقول في النهاية: نعم هذا هو الله.

لقد وضع الله روحه وقدرته في المادّة، في الحياة، في غريزة الحيوان، وفي فكر الإنسان

وروحه. فليس الله بعيدًا عن الكون يشكّله من الخارج، لكنّه موجود ويمارس هذا العمل من داخل المادّة والمخلوقات في إطار هذا التطوّر الطبيعيّ، وهو الذي يجعله ينطلق ويزدهر وينمو ويتقدّم إلى الأمام: «**ففيه حياتنا وحركتنا وكياننا...**» (أع ١٧/٢٨). وبقدر ما يختبئ الله عن عيوننا، يكون وجوده حقيقيًّا، فإلهنا مستتر، والإله الظاهر هو إله سطحيّ.

وإليك هذا المثال لتبسيط الفكرة: ما هو الفرق بين القائد الكبير والقائد الصغير؟ الثاني هو مَن يدخل من حين إلى حين، يسأل مرؤوسيه ماذا فعلوا، ويأمر بوضع هذه الورقة في هذا المكان، ثمّ يعود بعد خمس دقائق ليرى هل تمّ تنفيذ أمره. وعلى النقيض، نرى القائد الأعلى يقول: أنا أريد أن تعمل هذا وذاك، هذه هي فكرتي. ثمّ يأتي في النهاية للمحاسبة، فهو يتوارى احترامًا للمسؤوليّة التي منحها لمرؤوسه، قال له: تصرّف، فلديك ذكاء وعندك حسن تصرّف. أعطاه المبادرة كما أعطاه الروح والفكر. هكذا يتصرّف القائد الأعلى، بعكس القادة الأصغر منه في الرتبة، فكلّ منهم يريد أن يتدخّل في كلّ لحظة ليأمر وينهى.

ونحن نتوقّع من الله أن يتدخّل في تفاصيل حياتنا مثل القائد الصغير، فيسألنا في كلّ لحظة: ماذا فعلت، هل نفّذت الوصايا؟ لقد أمرتك بأن تفعل هذا، ونتخيّل أسلوبه في الخلق بالطريقة نفسها. لكنّ الله أعطى كلّ قدرته، وخبّأها داخل المادّة، وقال لها: إنطلقي. في هذه الحالة تقوم الخليقة بخلق ذاتها وهذا يسعدها. لكنّ الله موجود في كلّ خطوة من خطوات هذا التطوّر، وهنا تكمن عظمته وقدرته، ففي رأيي شخصيًّا أرى نظريّة التطوّر أعمق بكثير من الفكرة القديمة للخلق، لأنّها تضع الله في مكانه الحقيقيّ الصميميّ لا الهامشيّ الخارجيّ، فكلّما توارى الله كان تواجده أحقّ وأعمق.

لنتأمّل في مسألة الأمومة والأبوّة. فحين يولد الطفل، يا ترى مَن خلقه؟ الوالدان أم الله؟ ونحتار في الإجابة، والحقيقة أنّ الله أعطى الوالدين القدرة حتّى يجتمعان ليكونا السبب المباشر والظاهريّ في خلق الجنين، وهذا يكون مصدر سعادة لهما، لكن هذا لا ينفي أنّه الخالق، فقد وهبنا سعادة الخلق لأنّه أوجدنا على صورته قادرين على الخلق. هذا هو سبب سعادة الإنسان

حين يرى عمل يديه، وهو ما جعل من الأبوّة والأمومة مصدرًا لفرح كبير، حين نرى طفلًا أنجبناه. وأخيرًا، هذا يشير إلى أنّ داخل العمل والإنجاز والنشاط البشريّ إنّما امتداد لخلق الله وتحقيق ملكوته.

كما المخرج في الفيلم

وهذا مثال آخر للتبسيط، فبعضهم يذهب إلى دور العرض السينمائيّ لمشاهدة البطل أو البطلة، أو قد تجذب بعضهم فكرة الموضوع، ثمّ يخرج بعد انتهاء العرض، فتسأله: هل شاهدت الفيلم؟ فيجيبك؟ نعم. وما رأيك فيه؟ جميل. لكن هناك مَن يذهب إلى السينما لا لمشاهدة أبطال العمل، بل ليستمتع بأحد أعمال المخرج المشهور يوسف شاهين. فهل يظهر المخرج في الفيلم ولو لمرّة واحدة؟ كلّا. بالرغم من أنّه موجود في كلّ تفاصيل الفيلم، في كلّ حركة، في الديكور والملابس، لكنّه لا يظهر إطلاقًا. ومَن يتعمّق في فنّ السينما لا يذهب لمشاهدة عمل لنجم معيّن، بل يذهب لمشاهدة فيلم لمخرج مبدع مثل يوسف شاهين. هكذا معظم الناس يشاهدون المخلوقات

فيقولون هذا فلان، وهذه منضدة، وذاك جبل... إلخ، فيكونون كمَن شاهد فيلمًا لفاتن حمامة، وبقي أن يتعرّف إلى مخرج الفيلم الذي لم يظهر، ولا يمكن أن يظهر على الشاشة.

هذا المثال يمكن أن تستعمله في التعليم أو مع أولادك في البيت، حين يسألك أحدهم: أين الله؟ أريد أن أراه. الله مثل المخرج، هو الشخص المحوريّ في كلّ عمل فنّيّ، لكنّه لا يظهر، ويجب ألّا يظهر. وفي نهاية الفيلم يقابلنا ليسألنا عن رأينا في هذا العمل، ويشرح لنا لماذا صمّم الديكور بهذا الشكل، ويعلن عن ذاته، ويكشف لنا عن جميع أسرار الفيلم.

هكذا يأتي ابن الإنسان في آخر العالم، ويظهر لنا بعد أن يتمّ كلّ شيء وتنتهي القصّة كلّها، فنفاجأ، ونقول له: أين كنتَ؟ ويجيب: كنتُ وراء كلّ هذا. لكن بخلاف المخرج الذي يحدّد كلّ حركة وكلّ التفاصيل، الله هو المخرج الأكبر الذي يعمل من خلال حركة الإنسان وتلقائيّته، وهذا هو الفارق الأساسيّ.

الفصل الثالث

عناية الله غير ما نتصوّرها
الله الآب... الله الأمّ

مقدّمة

إعتدنا الاعتقاد أنَّ الله حدَّد مصير الإنسان والبشريّة سلفًا «**كلّه مكتوب**»، إنّه الإيمان بالقضاء والقدر، فتاريخ الإنسان قضاء وقدر، وقصّة العالم عبارة عن سيناريو أو فيلم تمّ تسجيل أحداثه ويُعرض علينا الآن، فأنتَ في دور العرض ترى المجرم يرفع السكّين محاولًا قتل البطلة، فتقفز من مكانك للحيلولة دون ذلك، لكن ما تمّ تسجيله من أحداث على شريط الفيلم سوف يعرض، ولا داعي لهذه المحاولات.

هناك مَن يعتقد أنّ حياتنا تسير على المنوال نفسه، فنسمع مَن يقول لا داعي للاجتهاد والعمل، ولا داعي لعرض مريضك على الطبيب، فما يريده الله إيّاه يفعل، ويعتقد القائل أنّه العالِم ببواطن الأمور. وفي الحقيقة هذا الاعتقاد من أهمّ أسباب التخلّف في بلاد الشرق، مع العلم أنّه يتعارض مع إيماننا المسيحيّ. فلا شيءَ مكتوبًا، وتاريخ الإنسانيّة

كتب أحداثه الإنسان بنفسه من خلال اختياراته وأفعاله، وهو الذي يؤلِّف قصّة حياته. فلا أحداثَ تسبق التسجيل، وكلّ اختيار وكلّ إنجاز وكلّ خطوة أقوم بها هي سطر جديد أدوِّنه بنفسي. أمّا الله فهو يعمل من خلال يدي، وبواسطة اختياري وحرّيّتي، وهو ليس بعيدًا عن ماجريات الأحداث، لكنّه يعمل بصورة مختلفة تمامًا عمّا كنّا نتصوّره.

أنا أكتب قصّة حياتي بنفسي، والله في داخلي يلهمني ويجذبني بلطف، لكنّه لا يضغط عليّ، ولا يؤثّر في حرّيّتي، يهمس في أذني: حبّذا لو تفعل هذا، وهو يقول: «**هاءنذا واقف على الباب أقرعه...**» (رؤ ٣/ ٢٠). فلماذا لا يدخل وهو الإله؟ لأنّي صاحب الباب وحائز المفتاح ومالك الدار، لذا هو يكتفي بأن يقرع. هذا هو احترام الله حرّيّة الإنسان الذي يفوق كلّ تخيّلاتنا، والله يهمس فينا كنسيم خفيف كما فعل مع إيليّا النبيّ: «فقال الربّ اخرج وقف على الجبل أمام الربّ. فإذا الربّ عابر وريحٌ عظيمة وشديدة تصدّع الجبال وتُحطِّم الصخور أمام الربّ. ولم يكن الربّ في الريح. وبعد الريح زلزال، ولم يكن

الربّ في الزلزال. وبعد الزلزال نار، ولم يكن الربّ في النار. وبعد النار صوت نسيم لطيف» (١ مل ١٩/ ١١ و١٢).

الله لا يدخل في قلب الإنسان عنوة مستخدمًا السلاح، بل يكتفي بأن يقرع قرعًا خفيفًا، منتظرًا قراري في السماح له بالدخول. إذًا حين نسأل: ما دور الله في الكوارث والحروب والمجاعات التي تحدث على الأرض... أين الله؟ إنّه في قلب هذه الأحداث، لكنّه لا يتدخّل فيها كعنصر خارجيّ غريب كما نتوقّع منه أحيانًا. هل تصوّرنا كيف يكون تاريخ الإنسان لو كان إلهنا يهوى التدخّل في كلّ تفاصيل حياتنا؟ هذا الجهاز لا تضعه هنا، احذر لئلّا تتسبّب في حادث مرور، إيّاك أن تقتل هذا... إلخ. يا ملاك جبرائيل تعال وارفع هذا، وضع هذا مكانه.. يا ملاك روفائيل.. يا ملاك ميخائيل.. هلمّوا.

نحن نتوق إلى عالم كلّه معجزات لأنّنا في الشرق ننبهر بالأعمال الخارقة، وحين لا نجد المعجزة نتساءل: إذًا أين الله؟ لو كان موجودًا لحدث كذا وكذا، تمامًا كما قالت مريم أخت لعازر «... **لو كنتَ ههنا لما مات أخي**» (يو

١١/ ٣٢). هذا هو مفهومنا عن الله الذي يتدخّل بصورة سافرة محسوسة وملموسة.

الله يتدخّل في حياتنا باستمرار، أذكّر بما قلته في فصل سابق عن الملائكة، فهي ليست كائنات تهبط علينا من فوق، كما تخيّلنا لفترة طويلة. فأنا لا أنتظر ملائكة من فوق، ولا أنتظر حدوث معجزات من فوق، لأنّنا في عالم معجزات، وعالم ملائكة، وعلينا فقط أن نكتشف أين نجدهم. لنتأمّل في حركة المرور في مدينة كبيرة مثل القاهرة، فهذا المنظر يمثّل في نظري معجزة بجميع المقاييس. ما يقرب من مليون مركبة وسبعة عشر مليون نسمة تتحرّك في طرق معظمها غير صالح، كلّ هذا يتمّ بدون حوادث تقريبًا. فهذه سيّارة تسير في عكس الاتّجاه، وهذا سائق يُخرِج كلتا يديه ليحيّي زميله، وهذا طفل يندفع في وسط الطريق.. إلخ أليست هذه معجزة.

أين الله إذًا؟ وما هو دوره في إطار هذا المفهوم؟ إنّه في يد السائق الذي يضغط على الفرامل في اللحظة المناسبة، وهو في نظرته الثاقبة، وفي عقله المتيقّظ. حين كنتُ طفلًا سمعتُ كثيرًا عن وجود ملاك يلازم كلّ شخص

منّا يُسمّى الملاك الحارس، فأين يقف هذا الملاك؟ أهو عن يميني أم عن يساري؟ وما هو شكله؟ وبعد فترة بدأتُ أعتقد أنّ هذه إمّا أن تكون خرافة، وإمَّا أنَّ بها شيئًا من الصحّة، وهذا ما توصّلت إليه في فترة لاحقة. فالملاك الحارس هو ما وضعه الله في كلّ إنسان من وسائل لحمايته والعناية به، فالغريزة هي إحدى صور العناية الإلهيّة وُضِعت في كلّ مخلوق بطريقة تُمكِّنه من أن يتصرّف بتلقائيّة ليحافظ على حياته. هذا التصرّف هل هو صادر منّي أم من الله؟ بالتأكيد هو منّي ومن الله. فالله أوجد بداخل كلّ فرد ما يلزمه ليتحاشى الكثير من الكوارث. إذًا الغريزة هي يد الله، وهي الملاك الحارس، فشعرة واحدة من رؤوسنا لا تسقط بدون إذنه: «**أمّا أنتم، فشعر رؤوسكم نفسه معدود بأجمعه**» (مت ١٠/ ٣٠). الله معنا، فلماذا نخاف؟ لنثق بعناية الله بنا التي تفوق كلّ تصوّراتنا.

١

الله الآب

ما هو الفرق بين كلمتَي الآب والأب؟ الأولى (بالمدّة) تعني الآب السماويّ، أمّا الثانية (بالهمزة) فنقصد بها الأب الأرضيّ. فأنا أُسمَّى الأب بولاد، وكلّ شخص متزوّج وله أولاد اسمه الأب. لكنّ الآب هو مصدر كلّ أبوّة. لذا يقول لنا بولس الرسول عن الله الآب: «**لهذا أجثو على ركبتيّ للآب، فمنه تستمدّ كلّ أسرة اسمها**» (أف ٣/ ١٤ و١٥)، وكلّ أب أرضيّ يمثّل الآب السماويّ ويعطي فكرةً وصورةً عنه، فنحن لا نعرف أبعاد أبوّة الله إلّا من خلال الأبوّة البشريّة. ونحن نقول في قانون الإيمان: «نؤمن بإله واحد، الله الآب، ضابط الكلّ... إلخ». فكلمة الآب تأتي قبل ضابط الكلّ، ممّا يعني أنّ قدرته وعظمته تأتي بعد أبوّته وحنانه، فهو آب قبل أن يكون قديرًا.

١ - لأنّه مصدر حياتي

فكلمة أب تشير إلى مصدر الحياة، والآب السماويّ هو مانح الحياة، وعلينا أن نتصوّر الأبوّة الإلهيّة كينبوع لا يجفّ ولا ينضب، تراه دائمًا متدفّقًا فيّاضًا. لذا نقول إنّ الله نبع، فمهما أعطى سيظلّ يهب بلا حدود. وأبوّته الإلهيّة لا تنضب يومًا من الأيّام، لذا نصفه بأنّه الحنّان الذي يمنّ ويعطي، كما نقول عنه الكريم، إذ تشير هذه الصفة إلى حبّ عطاء الآخرين. الله يفرح ويسعد حين يعطي باستمرار مثل النبع.

ربّما تكون عزيزي القارئ قد شاهدت نبعًا من الينابيع الموجودة في الفيوم أو في واحة سيوه، حيث زرتها في إحدى المرّات. وهناك حوالى ألف نبع يتدفّق منها الماء من جوف الأرض باستمرار طول العام، في وسط الصحراء.

حين أتصوّر الله قد أراه في صورة ثالوث، أو أتصوّره جالسًا على عرش يحكم العالم، لكنّ هذه الصورة لا تُعبِّر عن ذاته الإلهيّة، فالصورة المعبّرة هي مانح الحياة ومصدرها، وقد عبّر أحد

ملوك القدماء المصريّين (إخناتون) عن الله، ورمز إليه بقرص الشمس في صورة دائرة تصدر منها أشعّة، وفي نهاية كلّ شعاع يد ترمز إلى عطاء الإله. ربَّما تكون، عزيزي القارئ، قد شاهدتَ هذا المنظر في الكتب التي تحكي عن حضارة مصر القديمة، أو في أحد المعابد المصريّة، والشمس كما نعلم تعطينا الضوء والحرارة، بل والحياة، فلنتخيّل مثلًا أنّها اختفت لمدّة شهر، فقد تتحوّل الأرض إلى صحراء خالية من أيّ مظهر للحياة. ونحن نلاحظ أنّ العُشب الذي ينمو في ظلّ شجرة ذابل الأوراق لأنّه محروم من ضوء الشمس، وهذا الضوء تمتّصه النباتات باستمرار حتّى تنمو وتحيا، وعلى هذا يمكن القول إنَّ الضوء والحرارة هما الحياة.

٢ - وما زال يخلقني

يراودنا التفكير كثيرًا في أنّ الله خلقنا وأوجدنا في العالم، ثمّ انسحب من دنيانا، وجلس في سمواته، واضعًا ساقًا على ساق، والملائكة من حوله تسبّح قدّوس قدّوس. كلّا، الله الذي أوجدنا وخلقنا وجبلنا باستمرار، يمنّ

علينا بالمزيد من الضوء والحرارة والحياة، وماذا أيضًا؟ والحبّ. فالضوء والحرارة والحياة كلّها رموز إلى قيمة أعمق هي الحبّ، وكما أنّ العشب لا يعيش بدون أشعّة الشمس، هكذا الإنسان لا يستطيع أن يعيش بدون هذا المصدر وهو الله. فهو الآب لأنّه خلقنا منذ قديم الزمان، بل لأنّه يخلقنا في كلّ لحظة، وباستمرار يثبّت فينا الحياة. والرسول بولس في **أعمال الرسل** يذكّرنا بهذه الحقيقة حين يقول: «**ففيه حياتنا وحركتنا وكياننا**» (أع ١٧/٢٨).

٣ - وهو يعتني بي

حين أفكّر في الله الآب، لا أفكّر فقط في كائن خلقني ثمّ ألقى بي في الدنيا، وقال لي: تصرّف بمفردك. كلّا، فهو يعتني بي باستمرار، مثل الأب الأرضيّ الذي لا يكتفي بأن يعطي ابنه الحياة، ثمّ يتركه أو يضعه في ملجأ. كلّا، إنّ الأب الأرضيّ يعطي الحياة، وباستمرار يوفّر الطعام والشراب والمسكن والعناية. وفي إنجيل متّى نقرأ: «**لا يهمّكم للعيش ما تأكلون ولا للجسد ما تلبسون. أليست الحياة أعظم من**

الطعام، والجسد أعظم من اللباس؟ أنظروا إلى طيور السماء كيف لا تزرع ولا تحصد ولا تخزّن في الأهراء، وأبوكم السماويّ يرزقها. أفلستم أنتم أثمن منها كثيرًا؟» (مت ٦/ ٢٥ و٢٦).

حتّى نتصوّر الله الآب، علينا أن نتأمّل في الطبيعة، ونلاحظ كيف تنمو الزهرة بدون أن تتعب، وكيف يتجدّد الزرع كلّ يوم بدون أن يبذل مجهودًا، وكيف تجد الطيور والحيوانات قوتها دائمًا. لذا يقول لنا: إذا كنتُ أعتني بالزرع والزهور والحيوانات والطيور، فكم بالأحرى بكُم يا أبنائي.

هذا التأمّل في موضوع الله الآب يجب أن يغرس فينا الثقة والطمأنينة والسلام الداخليّ والاقتناع بأنّ هناك أبًا لا ينسى أبناءه. فجميل أن نعلن عن إيماننا بتلاوة قانون الإيمان، لكن هذا لا يكفي، إذ علينا أن نشعر به ونعيش كلماته. يجب أن يمتزج بلحمنا ودمنا وحواسّنا حتّى يصير جزءًا منّا، فهذا الذي يقول: أنا مؤمن بالله الآب، ويعيش في قلق باستمرار، يفكّر في ما سيحدث غدًا وبعد غد، في رزقه، في امتحاناته، في شأن ابنه المريض... إلخ. ثق تمامًا بالذي خلقك،

وهو الذي يقول لك: **«لا تهتمّ بشأن الغد، فالغد يهتمّ بشأنه ويكفي شرّه»** (مت ٦/ ٣٤).

٤ - ويستجيب لرغباتي

«إسألوا تعطوا، اطلبوا تجدوا، اقرعوا يُفتح لكم. لأنّ كلّ مَن يسأل ينال، ومَن يطلب يجد، ومَن يقرع يُفتح له. مَن منكم إذا سأله ابنه رغيفًا أعطاه حجرًا، أو سأله سمكة أعطاه حيّة؟» (مت ٧/ ٧-٩). فإذا كنتَ، عزيزي القارئ، أبًا، هل يأتي ابنك ويسألك أن تعطيه قطعة من الخبز فتعطيه حجرًا؟ كلّا، بل تعطيه خبزًا ومربّى ولحمًا. فإذا كان هذا تصرّف الأب الأرضيّ، فكيف يكون الآب السماويّ. لديّ اقتناع كامل بأنّ كلّ ما نطلبه في الصلاة يستجيب له الله وفوق ما نتخيّله، وهذا هو الإيمان الحيّ.

«فإذا كنتم أنتم الأشرار تعرفون أن تعطوا العطايا الصالحة لأبنائكم، فما أولى أباكم الذي في السموات بأن يعطي ما هو صالح للذين يسألونه» (مت ٧/ ١١). وأتوقّف على عبارة: يمنح الصالحات لمَن يسأله، لأنّنا في بعض الأوقات نلاحظ أنّ صلواتنا غير مستجابة، فهل

سبب ذلك أنّ الله لا يسمعنا؟ أو لأنّ قلبه لا يستجيب؟ لو لم يستجب الله لنا فلأنّه يُعدّ لنا ما هو أفضل لأنّه «يمنح الصالحات»، فلا يجوز أن نشكّ فيه، كما أنّ الابن لا يشكّ في أبيه الأرضيّ لأنّه يمنح الصالحات، أو كما نقول: «**الله يفعل ما فيه الخير**»، لأنّي أطلب شيئًا من دون أن أعرف إنْ هو مصدر خير أم شرّ لي.

٥ - علاقته بي هي علاقة أب بابنه

لم تتوقّف علاقة الله بي على كونه خالقي، بل هي علاقة أب بابنه، هذا ما يظهره الفصل الأوّل من إنجيل يوحنّا: «**أمّا الذين قبلوه وهم الذين يؤمنون باسمه فقد مكّنهم أن يصيروا أبناء الله: فهم الذين لا من دم ولا من رغبة لحم ولا من رغبة رجل، بل من الله ولدوا**» (يو ١: ١٢ و١٣). هناك ولادة بشريّة من الوالدين، ومنها اتّخذنا الجسم، لكن هناك ولادة أسبق وأعمق وأحقّ، هي من الآب. وممارسة المعموديّة هي اعتراف بتلك الولادة الروحيّة. كلّنا نحتفل بعيد ميلادنا ونقول عيد ميلاد سعيد مع قالب الحلوى وفي وجود الأصدقاء، لكن هناك ميلاد آخر، الميلاد

الروحيّ الذي يجعلنا نعترف بأبوّة أبعد من الأبوّة البشريّة، لذلك يقول القدّيس يوحنّا في الفصل نفسه: «**فمن ملئه نلنا بأجمعنا وقد نلنا نعمة على نعمة**» (يو ١/ ١٦).

وحين أعطاني أن أكون ابنًا له أعطاني بالتبعيّة أن أكون وريثًا له، فما هو هذا الإرث الذي اكتسبته؟ لقد ورثت الطبيعة كلّها، وحين خلق العالم بكلّ ما فيه قال لي: هذا العالم كلّه ملك لك، والقدّيس بولس الرسول يقول: «**فإذا كنّا أبناء الله فنحن ورثة: ورثة الله**» (روم ٨/ ١٧).

٦ - دم إلهيّ يجري في عروقي

وبما أنّي مولود من الله، فما يجري في عروقي من دم هو دم إلهي، وكما أحمل في جسمي كروموسومات وجينات من أبويَّ، هكذا أحمل في داخلي دم الله، خُلقتُ من لحمه ودمه. لهذا يقول لي: «**أمّا أنتم فإنّكم ذريّة مختارة وجماعة الملك الكهنوتيّة وأمّة مقدّسة وشعب اقتناه الله...**» (١ بط ٢/ ٩). وكما أنّه قدّوس، أنا بالتبعيّة مقدّس: «**أنظروا أيّ محبّة خصّنا بها الآب لندعى أبناء الله، وإنّنا نحن كذلك**» (١ يو

٣/ ١). ليس فقط نُدعى، بل ونكون أبناء الله. وكأنّنا لم نفهم ما يقوله يوحنّا فيضطرّ إلى أن يكرّرها ويوضّح ما سبق وقال كما يفعل المدرّس فيقول: **«أيّها الأحبّاء نحن منذ الآن أبناء الله، وما أُظهر بعد ما سنصير إليه»** (١ يو ٣/ ٢). صفة البنوّة الإلهيّة لم تظهر بعد، فهي على شكل بذرة تنمو الآن، وبقدر ما يعي الإنسان ويدرك ويتعمّق في هذا المفهوم، بالقدر الذي تزداد وتزدهر هذه البنوّة في قلبه وتؤتي ثمارها.

٧ - هو يحبّني حبًّا أبويًّا

ممّا يؤسَف عليه أنّنا نشأنا في مجتمعاتنا على الرعب من الله، فنردِّد على مسامع أطفالنا: كن حذرًا، إن لم تفعل هذا أو ذاك سوف يحدث لك... الله سبحانه وتعالى سوف يجازيك ويعاقبك بكلّ مصائب الدنيا. وكانت النتيجة أنّنا تربّينا منذ الطفولة على الخوف من عقاب الله ومن انتقامه ومن عذاب النار، وهذا غير صحيح. فعلينا أن نغرس في كلّ من حولنا الثقة بالله، وأن نتجنّب الخطأ، لا خوفًا من النار، بل حبًّا له. فالدافع لا يجوز أن يكون الخوف، بل الحبّ،

حتّى لا أُغضب الله، لا خوفًا من عقابه: «**لا خوف في المحبّة بل المحبّة الكاملة تنفي عنها الخوف، لأنّ الخوف يعني العقاب ومَن يخف لم يكن كاملًا في المحبّة**» (١ يو ٤/١٨).

هناك متصوّفة مسلمة اسمها رابعة العدويّة كانت تسير في الطرق وتقول: أعطوني كوب ماء لأُطفِئَ الجحيم، وأعطوني شعلة من النار لأشعل الجنّة، وكانت تردّد أنّها لا تريد نارًا ولا جنّة حتّى تحبّ الله حبًّا صافيًا، وتعيش بدافع الحبّ، لا بدافع الثواب والعقاب، لا تريد أن تعيش بسبب وجود تهديد النار أو ترغيب في الجنّة. هذا هو قمّة الشعور بالأبوّة الإلهيّة. أنا ابن الله، ولا أخاف من والدي لأنّه يمسك العصا في يده، بل لأنّي أعيش معه في جوّ حبّ.

نسترجع يوم تعميد المسيح في نهر الأردنّ، حين سمع الموجودون صوتًا من السماء يقول: «... **هذا هو ابني الحبيب الذي عنه رضيت**» (مت ٣/١٧). قالها الآب مخاطبًا الابن يسوع المسيح، لكن هل من الممكن أن يخاطبني أنا بهذه العبارة؟ نعم، فهو ينادي كُلًّا منّا ويقول له: أنت ابني الحبيب الذي به سُررت. هناك مَن

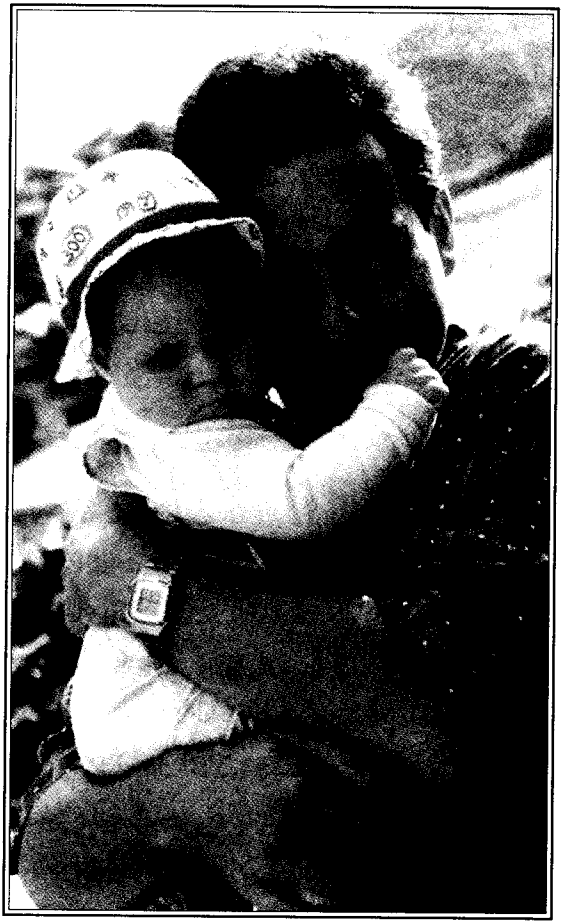

ينادي كلًّا منّا ويقول له: أنتَ ابنيَ الحبيب

يعترض ويقول: كلّا، غير معقول، فهذا ينطبق على المسيح الابن الوحيد. وأنا أؤكّد أنّني أيضًا الابن الوحيد، وسرّ المعموديّة كشف لنا عن هذه النعمة، والعبارة التي خاطب الله بها الابن في أثناء العماد يقولها لي، وكما أحبَّ يسوع ابنه الوحيد هو يحبّني كابن وحيد له، كأنّي مركز اهتمامه. فأنا في نظره أمثّل كلّ شيء، والصلاة ليست كلمات جوفاء نردّدها، بل هي وقت نخصّصه للإحساس بهذه الحقيقة وإدراكها، الإحساس بأنّ لي أبًا سماويًّا يحبّني حبًّا أبويًّا مميّزًا.

هناك سيّدة هنديّة تُدعى بلقيس شيخ، تحكي في أحد الكتب كيف اهتدت إلى المسيحيّة: فقد كانت تسمع عن ديانة المسيحيّة وعن المسيحيّين الذين يبشّرون بالله الآب، وتتذكّر والدها الذي كان إنسانًا ذا شأن، يملك أراضي وأموالًا، وبمجرّد أن تدخل عليه في مكتبه، وهو غارق في أوراقه وتليفوناته، كان يترك كلّ شيء ويدعوها: تعالي يا صغيرتي، ويأخذها في حضنه ويداعبها، وإذا حضر مساعدوه ليذكّروه بميعاد مهمّ ينتهرهم ويقول لهم: ليس الآن، فأنا مشغول. وفي ليلة

ذهبتْ إلى سريرها وقالت في نفسها إن كان أبي ينسى كلّ شيء حتّى يحضنني ويداعبني، فهل من المعقول أنّ الله الآب يعاملني هكذا؟ هذه الفكرة نبعت في مخيّلتها، ويومها اكتشفت الأبوّة الإلهيّة بطريقة جديدة، وقبلتْ المعموديّة، وأعلنتْ أنّها مسيحيّة، وكتبتْ هذا الكتاب بعنوان **تجرّأتُ على أن أدعوه أبًا**، وبالطبع اضطرّت إلى أن تترك بلدتها وأسرتها، وعاشت في الغربة، لكنّ هذه الفكرة فتحت أمامها آفاقًا جديدة.

ولقد قرأتُ عن الرئيس الأسبق جون كنيدي حين كان رئيسًا لأعظم دولة في العالم وأقواها وأكبرها، ومن خلال عمله كان يدير العالم كلّه تقريبًا. وكان عنده طفلة صغيرة تفتح باب مكتبه، وبالكاد تصل يداها إلى مستوى المقبض، وحين تدخل عليه يترك كلّ مشاغله جانبًا ويأخذها في حضنه. في هذه اللحظات كانت جميع أمور العالم والسياسة تتوقّف. ولو تصفّحتَ **سفر أشعيا** بدايةً من الفصل الأربعين، وهو ما يُطلق عليه سفر تعزية إسرائيل، ستجد التعابير نفسها، فالله يقول لي: «**لأنّي انا الربّ إلهك، قدّوس إسرائيل مخلّصك، وقد جعلتُ مصر فدية عنك، وكوش**

وسبأ بدلًا منك، إذ قد صرتَ كريمًا في عينيَّ . . . ، وأُسلِمُ أناسًا بدلًا منك، وشعوبًا بدلًا من نفسك» (أش ٤٣/٣ و٤). حبَّذا لو تأمّلتَ في **سفر أشعيا**، الفصل الأربعين وما بعده، لتتوقّف على الآيات التي تتحدّث عن أبوّة الله.

٢

الله الأمّ.. أمومة الله

حقيقة تدعو إلى الأسف أنّنا جعلنا من الله أبًا متّسمًا بالذكورة، في حين هو أمّ وسِمَتُه الأساسيّة الأمومة، قبل أن يكون ذكرًا. فالأمومة تُظهر جانبًا من حبّ الله قد لا يكون موجودًا في الأب. طبعًا، هذا لا ينفي أن يتّصف الرجل بالحنان والطيبة والرقّة.. إلخ، لكنّ الأمر يختلف عند الأمّ. هكذا ظهر اتّجاه في أمريكا منذ أعوام، فهم يقولون عن الله (She) وليس (He)، فيتحدّثون عنه سبحانه وتعالى ويقولون: كلّها حبّ. فهل نستطيع نحن أن نطلق على الله الضمير هي؟

من ناحية المبدأ، الله كائن أعلى لا جنس له، فهو خارج عالم الذكورة والأنوثة، لأنّه مصدر الاثنين، وهو يتخطّى هذا وتلك، ويتفوّق عليهما تفوّقًا مطلقًا. لهذا، حين خلق الإنسان خلقه على

صورته كمثاله ذكرًا وأنثى: «**فخلق الله الإنسان على صورته، على صورة الله خلقه ذكرًا وأنثى خلقهم**» (تك ١/ ٢٧). ومن الآية نفهم أنّ صورة الله ليست في الذكر أو في الأنثى، بل فيهما معًا، وحتّى نشهد بمحبّة الله يجب ألّا تقتصر على مفهوم الأبوّة، بل والأمومة أيضًا، لأنّها أجمل وأقوى في أغلب الحالات.

فعلى خلاف الأبوّة التي تقتصر أحيانًا على منح بذور الحياة، نجد الأمّ تحمل الجنين في أحشائها لشهور، وتشعر به، فيتولّد عن ذلك إحساس متبادل ورباط قويّ. لذلك هناك عبارة أحبّها جدًّا، والمفروض أن نُدخلها في مصطلحاتنا، هذه العبارة التي يردّدها أخوتنا المسلمون: «بسم الله الرحمن الرحيم». فكم هو جميل هذا الوصف لله! ولنحاول أن نقول بسم الله الرحمن الرحيم، الآب والابن والروح القدس، إله واحد آمين. فماذا أضافت كلمتا الرحمن الرحيم؟ علينا أن ندرك من أين اشتقّت الكلمتان. المصدر من كلمة رحم، رحم الأمّ، هذا الجيب الذي يتكوّن فيه الجنين، وفيه ينمو، حيث يجد الحماية الكاملة. إنّه الحضن الدافئ الذي يجد

فيه كلّ احتياجاته من هواء وغذاء وماء... إلخ. والأمر لا يتوقّف على الولادة، ففي أحضان الأمّ يرضع الوليد ويشعر بالحنان ودفء الحبّ، هذا كلّه يتمّ حين يكون الأب في العمل، يسعى إلى كسب قوت الأسرة، وتظلّ الأمّ في صلة مستمرّة لصيقة بطفلها.

مِثْل الأمّ خلقنا من ذاته

أحيانًا نفكّر في أنّ الله خلقنا من العدم أو اللاشيء، لكنّي أؤكّد أنّه لم يخلقنا من لا شيء، بل من كيانه، ومن ذاته تمامًا مثل الأمّ التي تنجب طفلها من ذاتها ولحمها ودمها. وعلى هذا نكون نحن لحم الله وجسده وأعضاءه، فبداخل الله إذًا علاقة عضويّة بيني وبينه، خلقني وجبلني من ذاته، وحين أبتعد عنه يشعر بفراغ داخله. لا تتعجّب لكون الله مكتفيًا بذاته، ولأنّي سواء بادلته الحبّ أم لا، ذلك لا يعنيه في شيء. هذا الاعتقاد خطأ، فلو أحببتُ الله يفرح، وحين أبتعد عنه يحزن، فإن كنتُ أنا عبدًا لله لما تأثّر بابتعادي، لكن لكوني ابنًا له نجده يفرح حين آتي إليه، وأحادثه وأصلّي له.

طالما فكّرنا في أنّ الله جالس على عرشه، نأتي إليه فلا نلفت انتباهه، وبعد فترة يكتشف أنّنا في حضرته الإلهيّة فيسألنا: ماذا تفعل هنا؟ فإذا أجبت أنا أصلّي يقول لي: وما شأني بذلك. كلّا، الله ينتظر صلاتي ولقائي، وحين أجلس معه يفرح، حتّى إنّني في أوقات كثيرة لا أصلّي في وقت الصلاة، بمعنى أنّني لا أنطق بكلمة، بل أجلس وأنظر إليه، وينظر نحوي. أبتسم له فيقابلني بابتسامة، وهذا يكفي. هذه هي أعمق صلاة وأعلاها، الصلاة بدون كلمات، تمامًا كما في الحبّ الذي يتجلّى في أسمى صورة حين نتخلّى عن الكلمات. هذا شأني مع الله، أعيش معه في علاقة حبّ بدون كلمات، والحبّ الحقيقيّ هو إحساس وشعور وارتياح متبادل بين طرفين، وهذا يكفي.

حين أخاطب الله وأجلس معه يفرح بوجودي وبحبّي، وعلى العكس حين أبتعد عنه ينقصه شيء، وكأنّ شيئًا قد انتُزِع من أحضانه، ويشعر بفراغ، وأنا الوحيد الذي بمقدوري أن أسدّه. صحيح أنّ الطفل ينفصل عن أمّه بالولادة بقطع الحبل السُّرِّيّ، لكنّي لا أستطيع أن أنفصل عن

الله. أنا دائمًا في أحضانه، وهو يحملني كما تحمل الأمّ جنينها قبل الولادة، وباستمرار يعطي من دمه ومن حياته ومن روحه الغذاء والحنان.

جلستُ مرّة في إحدى الحدائق، ولفتَ نظري طفل صغير يجري هنا وهناك، وتساءلت: هذا الطفل يبدو وحيدًا، فأين أمّه؟ وجلتُ ببصري في أرجاء المكان، فوجدتُ الأمّ تجلس على أحد المقاعد تتابع بنظرها كلّ حركة من حركاته، وهو يروح ويجيء، فإذا تعثّر وسقط تنهض مسرعة وترفعه وتحتضنه. هكذا أتصوّر حنان الله مع الإنسان. فنحن نحتاج إلى التأمّل في الأمومة والأبوّة البشريّة حتّى ندرك مدى حنان الله تجاهنا.

حبّه شامل مثل حبّ الأمّ

حبّ الله لا يختلف من شخص إلى شخص من حيث الكمّ، لكنّه قد يختلف من حيث الكيف، تمامًا مثل أمّ لديها أربعة أطفال، فهي قد تفضّل هذا لأنّه ذكيّ، وذاك لأنّه حسّاس، والثالث لأنّه ضعيف البنية، والرابع لأنّه مشاغب، ومن هنا قد يبدر منها بعض التفضيل

لأحدهم في موقف ما، لكن لا نستطيع الادّعاء بأنّها تؤثر أحدهم على الآخرين. وقياسًا على ذلك يمكن القول إنَّ الله يحبّك لسبب معيّن، ويحبّني لأنّ عندي ظروفًا أخرى. لكنّه لا يفضّل أو يحبّذ أحدًا في حبّه إيّانا، فجميعنا أولاده، وكلّنا مهمّون جدًّا جدًّا. فلو فقدت الأمّ أحد أطفالها كأنّها فقدت الدنيا كلّها، ولا تستطيع أن تعزّيها بأن تقول لها كفاك الثلاثة الآخرون، أو أنّه بإمكانك إنجاب أطفال آخرين. ففي حياتها، وأيضًا في نظر الله هذا الابن لا بديل له، هو كلّ حبّها حتّى لو أنجبت عشرة أطفال بعده.

في مَثَل الابن الضالّ (لو ١٥/ ١١-٣٢)، ذلك الابن الذي بذّر أموال أبيه: ماذا كان شعور الأب حين كان ابنه بعيدًا عنه، وفي أيّ من ولدَيْه كان يفكّر؟ الاثنين بالتأكيد. لكنّي أعتقد أنّه أحيانًا قد يكون حبّه للذي ضلّ وابتعد أشدّ، فهل هذا يدفعني إلى أن أبتعد عنه حتّى يحبّني حبًّا أشدّ؟ بالطبع لا، لكنّ هذا الخاطئ الذي ابتعد عن الله إلى حدّ ما، يفتقده افتقادًا أشدّ تمامًا كالخروف الضالّ (مت ١٨/ ١٢)، لأنّه ضعيف وبائس وجائع، وعنده احتياج أشدّ إلى رحمة الله.

قد نقول: هذا ظلم، كما جاء في مَثَل الفعلة (مت ٢٠/ ١-١٦)، فإن كنتَ رافضًا أن يحبّ الله الإنسان الضالّ حبًّا أشدّ تكون غير مدرك الحبّ الإلهيّ، الله يقول لنا: إقبلوني حين أحبّ أخاكم الضالّ، اقبلوا رحمتي. فإذا فعلنا بفرح نكون حقًّا من أبنائه، فلا تحكم على الله بتفكيرك الخاصّ، لأنّ معاييره تختلف عن معاييرنا: «**كما تعلو السموات عن الأرض كذلك طرقي تعلو عن طرقكم، وأفكاري عن أفكاركم**» (أش ٥٥/ ٩).

سوف أورد في ما يلي بعض النصوص التي وردت في **الكتاب المقدّس**، فإنّها توضح لنا مظاهر أمومة الله.

هذا المعنى يتجلّى كثيرًا في **المزمور ١٣٩**.

«**يا ربّ قد سبرتني فعرفتني، عرفتَ جلوسي وقيامي، فطنتَ من بعيد لأفكاري، قدّرتَ حركاتي وسكناتي وألفتَ جميع طرقي**» (١-٣). تمامًا مثل الأمّ، يتابعني الله بنظراته، حين أقوم يشعر بي، يراقبني في جلوسي وسفري.. إلخ. وللأسف الشديد، كثيرًا ما صوّرنا نظرة الله إلينا كنظرة الرقيب أو الجاسوس، حتّى إنّهم في بعض

الكنائس رسموا مثلّثًا على السقف بداخله عين حادّة النظر، وقالوا هذه عين الله تتربّص بك حين تَخطَأ. لكنّ الإنسان المؤمن الحقيقيّ هو الذي يعيش دائمًا تحت نظر الله فيشعر بها، فهي حبّ وشفقة وحنان وعناية. هذه الحالة التي أسمّيها الصلاة الدائمة التي لا تعني تكرار صلوات معيّنة، فقد افتقدنا الوقت الذي نكرّر فيه صلواتنا بسبب مشاغل العمل والحياة، فكيف أصلّي صلاة مستمرّة؟ أفعل هذا حين ينتابني شعور مستمرّ بأنّ الله ينظر إليَّ نظرة حبّ، هذا الإحساس هو صلاة تناغم ووحدة بالله. أنا أريد أن أفتح لك مجالًا للصلاة الدائمة بعيدًا عن صلوات كلّها تكرار كلمات.

«قبل أن يكون الكلام على لساني، أنتَ يا ربّ عرفته كلّه» (٤). وهذا ما تفعله الأمّ، حين يأتي ابنها من المدرسة، وتلحظ تغيّرًا عليه، فتبادر بسؤاله: ماذا بكَ؟ فيقول: لا شيء، لكنّها تلحّ في السؤال وتؤكّد له: كلّا، ماذا حدث؟ فهي تحسّ بكلّ تغيّر في نظراته، بعكس الأب الذي يسأل ابنه مكتفيًا بتأكيده عدم حدوث شيء غريب. فالأمّ تمتلك حاسة سادسة. والله كلّه

حواسّ، ويعرف ما يدور في داخلنا.

«من وراء ومن قدّام طوّقتني وجعلتَ عليّ يدك» (٥). هذه الآية معبّرة إلى حدّ بعيد، من ورائي ومن قدّامي تحيط بي وتجعل يدك عليّ. أحيانًا أضع يدي على طفل صغير أو أحضنه، هذا الحضن ليس منّي، بل من الله. فهو يحتويني ويحضنني باستمرار، وقد تطرّقتُ فيما سبق إلى الصلاة الدائمة حين نلتقي نظرة الله، وأضيف هنا بصورة أعمق الشعور بيد الله عليّ، حين يحضنني ويحويني ويحتويني ويستوعبني، كلّ هذا الإحساس هو بالصلاة وبالله. الأساس بالحبّ الإلهيّ الذي يغمرني، ولهذا أقول مع كاتب المزمور: «من وراء ومن قدّام طوّقتني وجعلتَ عليّ يدك».

«علم عجيب فوق طاقتي أرفع من أن أدركه. أين أذهب من روحك وأين أهرب من وجهك؟» (٦ و٧). تحوي حياتي كلّها. **«إن اتّخذتُ أجنحة الفجر وسكنتُ أقاصي البحر، فهناك أيضًا يدك تهديني ويمينك تمسكني»** (٩ و١٠).

«أنتَ الذي كوَّن كُليَتَيَّ ونسجني في بطن أمّي»

(١٣). هذه صورة جميلة جدًّا عن حنان الله الأمّ تدعوني إلى التفكير في عبارة بسم الله الرحمن الرحيم، لأنّ الله له رحم مثل الأمّ، فمَن الذي زرع عند الأمّ الإحساس بالرحمة والشفقة والحبّ سوى الله، لذلك يمكنني أن أقول إنَّها بمشاعرها تعبّر وتمثّل الأمومة الإلهيّة. وفي الأعداد السابقة من **المزمور ١٣٩** يتحدّث كاتبه عن الجنين حين يكوّن في بطن أمّه، وكيف يكوّنه الله. ماذا تفعل الأمّ وهي حامل سوى أن تأكل وتشرب وتنام، وبعد تسعة أشهر تلد، فلقد اكتفت في أثناء فترة حملها بأن تأكل فولًا ولحمًا وأرزًّا... إلخ. هذه المعجزة الحيّة المتكرّرة، وأيّ أمّ ترى طفلها لأوّل مرّة تتعجّب كيف تكوَّن هذا الجنين بداخلها؟ الله هو الذي كوَّنه، عمل فيه ليل نهار لمدّة تسعة أشهر حتّى تكوَّن هذا المخلوق الجميل بجميع أعضائه. «**أنتَ الذي كوَّن كُليَتَيَّ ونسجني في بطن أمّي**»، تمامًا كما يفعل النسّاج على النول حتّى يُخرج ثوبًا من القماش.

ومن **سفر المكّابيّين الثاني** نقرأ هذه الآيات، وممّا قالته لهم: «**لستُ أعلم كيف نشأتم في أحشائي، ولا أنا وهبتكم الروح والحياة، ولا أنا**

نظّمتُ عناصر كلّ منكم. ولذلك، فإنّ خالق العالم، الذي جبل الجنس البشريّ والذي هو أصل كلّ شيء، سيعيد إليكم برحمته الروح والحياة، لأنّكم تستهينون الآن بأنفسكم في سبيل شرائعه» (٢ مك ٧/ ٢٢ و٢٣).

وفي **سفر أشعيا** نجد الكثير من الصور التي توضح لنا مظاهر أمومة الله: **«قالتْ صهيون: تركني الربّ ونسيني سيّدي. أتنسى المرأة رضيعها فلا ترحم ابن بطنها؟ حتّى لو نسيت النساء فأنا لا أنساك»** (أش ٤٩: ١٤ و١٥). ويحدث أحيانًا أنّ أُمًّا تنسى رضيعها، لكنّ الربّ يؤكّد أنّه لن ينساني. **«هاءنذا على كفّي نقشتك وأسوارك أمام عيني في كلّ حين»** (أش ٤٩/ ١٦). أنتَ عزيز عليَّ لا على كفّي فقط، بل على قلبي. هذا الإحساس يجب أن يجعلنا نرتاح إلى الله ونسترخي في حضنه، كما يفعل الرضيع في أحضان أمّه.

هناك تجربة اختبرتُها في ميدان محطّة السكّة الحديديّة بالقاهرة، حيث تعجّ بالزحام من مارّة وسيّارات وأوتوبيسات. فوسط هذا الزحام، رأيتُ أمًّا تجري لتلحق القطار ورضيعها نائم في

حضنها لا يخشى أن تصدمه سيّارة، ولا يخاف من تدافع الناس، ولا أن يفوته القطار. هذه هي قمّة الحياة الروحيّة، أن أنام على كتف الله الأمّ وأسترخي وأعيش في سلام. فمَن يستطيع أن يختبر هذا الإحساس وهذه الروحانيّة، روحانيّة الاستسلام والسكينة والثقة العمياء في حضن الآب والأمّ؟ لقد عاشت القدّيسة تريزيا الطفل يسوع هذا الإحساس، ووضَّحت لنا بطريقة جديدة كيف يكتشف الإنسان في حياته الأحضان الأبويّة الأموميّة التي لله.

«... وبرأفة أبديّة أرحمك قال الربّ فاديك، ... وإن ابتعدتْ الجبال وتزعزعتْ التلال، فإنّ رأفتي لن تبتعد عنك، وعهد سلامي لن يتزعزع، قال الربّ راحمك» (أش ٥٤/٨ و١٠). يقول لك حتّى لو الجبال تزعزعت، والتلال اهتزّت فحبّي لك لن ينتهي. أقول لكم هذا لأنّني ابتعدتُ، عن الله في بعض الأوقات، لكنّه لا يبتعد عنّي، أنا أخطأ، لكنّه لا يرذلني، وإن نسيت الأمّ رضيعها، فهو لا ينساني. في بعض الأوقات، حين نقترف خطيئة نتصوّر أنّ الله ينظر إلينا بنظرة غضب واحتقار. كلّا، إنّه ينتظرنا

حتّى نعود إليه مرّة أخرى.

«والآن هكذا قال الربّ خالقك يا يعقوب، وجابلك يا إسرائيل: لا تخف، فإنّي قد افتديتُك ودعوتُك باسمك، إنّك لي. إذا عبرتَ المياه فإنّي معك، أو الأنهار فلا تغمرك، وإذا سرتَ في النار فلا تكتوي، ولا يلفحك اللهيب، لأنّي أنا الربّ إلهك قدّوس إسرائيل مخلّصك، وقد جعلتُ مصر فدية عنك، وكوش وسبأ بدلًا منك. إذ قد صرتَ كريمًا في عينيَّ، ومجيدًا فإنّني أحببتُك، وأسلمُ أناسًا بدلًا منك، وشعوبًا بدلًا من نفسك، لا تخف فإنّي معك» (أش ٤٣/ ١-٥).

خاتمة الكتاب

من خلال كلّ ما سبق، أتمنّى أن أكون قد كشفتُ لك عن أسلوب حياة، وأعدنا اكتشاف الدين بصورة أخرى مختلفة، ووجدنا الله في صورة جديدة. ربّما تتحوّل صلاتنا إلى صلاة في قلب الحياة وفي قلب العالم، طبعًا، تستطيع أن تجد الله في الصحراء، وفي الصمت، وفي التعبّد والاعتكاف، وهذا جيّد. لكن قد لا نكون مدعوّين إلى أن نعيش في حالة توحُّد في البرّيّة، فأنتَ مدعوّ إلى حياة علمانيّة في صميم العالم مع مشاكل المدنيّة وضوضائها، أو في حياة رهبنة وسط العالم، في المدارس والمستشفيات والملاجئ... إلخ. نحن مدعوّون إلى حياة وسط العالم، لذا علينا أن نتعلّم كيف نجد الله، وكيف نصلّي عمق الصلاة وعمق التعبّد، وكيف نكتشف وجهه في صميم حياتنا، فلا يتوقّف ديننا على كونه دين معابد وكنائس وطقوس، بل يتحوّل

إلى دين حياة. فيكون ديني هو حياتي، وحياتي هي ديني، في معاملاتي مع الآخرين، وهذا يبعث الحياة في الدين.

فهرس المحتويات

الفصل الأوّل: **وجود اللَّه غير ما نتصوَّره**

اللَّه في قلب حياتنا ٥

أين الله؟ ٧

١- وجود الله في المخلوقات ٩

كيف نرى الله في المخلوقات؟ ١٦

المخلوقات وسيلة تقودنا إلى الخالق ١٨

أ - الله موجود في الطعام والشراب ٢٠

ب - الله في جمال الطبيعة ٢٤

٢- وجود الله في القريب ٣١

محبّة القريب ٣١

وجه الله في وجه القريب ٣٤

والقريب قد يكون ملاك الله المُرْسل إليَّ ٣٨

الخلاصة ٤٣

الفصل الثاني: **ملكوت اللَّه غير ما نتصوَّره**
اللَّه أكبر. . . اللَّه أصغر ٤٧
الله أصغر ٤٩

١- عظمة الله غير ما نتصوَّرها ٥٣
وُلِد مهاجرًا ٥٥
فرّ فرارَ لاجئٍ سياسيّ ٥٦
وقف في طابور الخطأة ٥٧
رفض عمل معجزات لإظهار قوّته ٥٧
ويرفض الدفاع عن نفسه ٥٩
وقيامته حدثت سرًّا ٦٠
والصليب هو معجزته الكبرى ٦٠
والحبّ هو لغته الوحيدة ٦٢
لا أعرف غير المسيح وإيّاه مصلوبًا ٦٣
أخلى ذاته ٦٥
ونزل إلى الجحيم بالصليب ٦٦
قبول الإنسان شرط ملكوته ٦٧
خاتمة ٦٨

٢- قدرة الله غير ما نتصوَّرها ٧١
مجد الله في الإنسان الحيّ ٧١
وقدرة الله في قدرة الإنسان ٧٤

الله في صميم العمل البشريّ ٧٦
الإنسان يكمل عمليّة الخلق ٧٩
كما المخرج في الفيلم ٨٤

الفصل الثالث: **عناية اللّه غير ما نتصوّرها**
اللّه الآب. . . اللّه الأمّ ٨٧
مقدّمة ٨٩

١- الله الآب ٩٥
١ - لأنّه مصدر حياتي ٩٦
٢ - وما زال يخلقني ٩٧
٣ - وهو يعتني بي ٩٨
٤ - ويستجيب لرغباتي ١٠٠
٥ - علاقته بي هي علاقة أب بابنه ١٠١
٦ - دم إلهيّ يجري في عروقي ١٠٢
٧ - هو يحبّني حبًّا أبويًّا ١٠٣

٢- الله الأمّ. . أمومة الله ١٠٩
مِثْل الأمّ خلقنا من ذاته ١١١
حبّه شامل مثل حبّ الأمّ ١١٣
خاتمة الكتاب ١٢٣

صدر في هذه السلسلة

١ - **هدف الحياة ومعناها**، الأب هنري بولاد اليسوعيّ، (ط٢).
٢ - **الإنسان وسرّ الوجود**، الأب هنري بولاد اليسوعيّ، (ط٢).
٣ - **السّلام الدّاخليّ**، الأب هنري بولاد اليسوعيّ، (ط٢).
٤ - **لا للقدر، كيف أكون حرًّا؟**، الأب هنري بولاد اليسوعيّ، نقله إلى العربيَّة الأب سامي حلّاق اليسوعيّ.
٥ - **نحو حياةٍ أفضل**، الأب هنري بولاد اليسوعيّ.
٦ - **الله غير ما نتصوّره**، الأب هنري بولاد اليسوعيّ.

تصميم الغلاف : **جان قرطباوي**
الصفّ والإخراج : **شركة الطّبع والنّشر اللّبنانيّة (خليل الديك وأولاده)**
الطباعة : **مؤسَّسة دكّاش للطباعة**

٢٠٠٦/٤/٣٠-٢-١٢٩٦